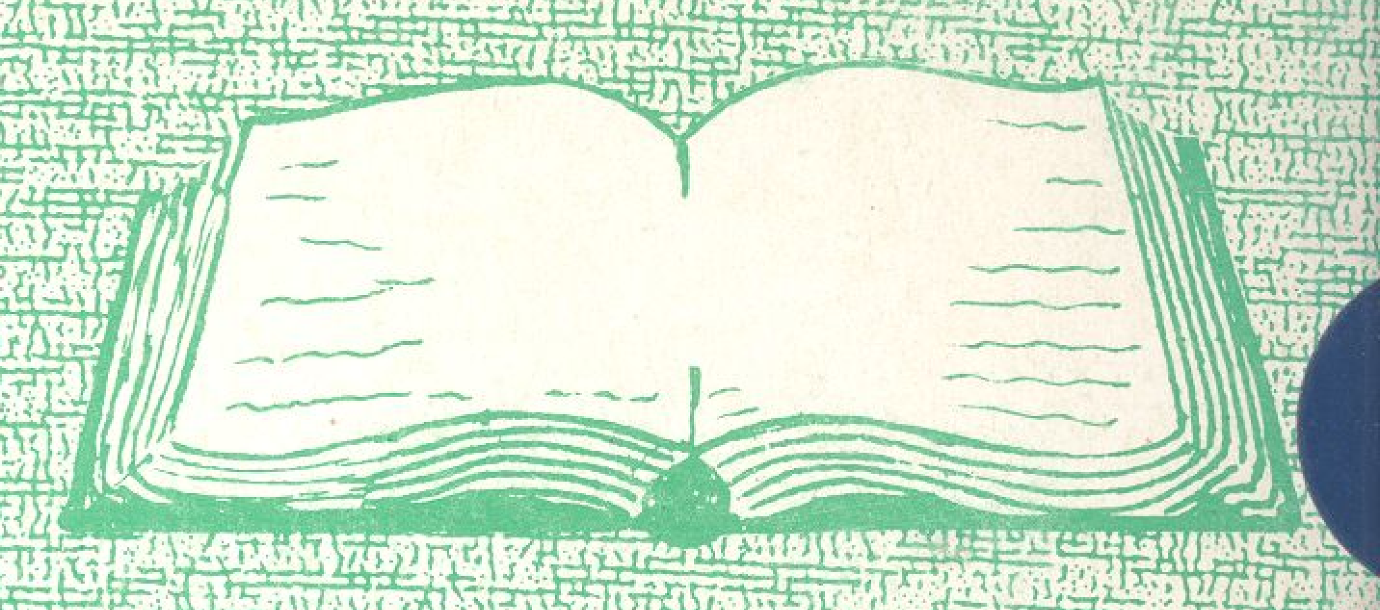


القديس

غريغوريوس أسقف نيصص

ST. GREGORY OF NYSSA

القمص تادرس يعقوب ملطى

الكلية الاكليركية واللاهوتية
بالإسكندرية

القديس

غريغوريوس أسقف نيصص

ST. GREGORY OF NYSSA

حياته - كتاباته - منهجه وأفكاره

١٩٩٣

القمص تادرس يعقوب ملطي
كنيسة الشهيد مارجرجس باسبورتنج

الكتاب : القديس اغريغوريوس .

إعداد : القمص تادرس يعقوب ملطى .

الطبعة : الأولى - ١٩٩٣م .

المطبعة : الأنبا رويس الأوفست - العباسية - القاهرة .

رقم الإيداع بدار الكتب : ٩٣/٥٣٥١ .

I.S.B.N. 977 - 5005 - 09 - 4



قداسة البابا شنوده الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية (١١٧)

الباب الأول

القديس

غريغوريوس أسقف نيصص

حياتــه

الآباء الكبادوك

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

الآباء الكبادوك

ظهر الآباء الكبادوك فى منتصف القرن الرابع بعد مرور حوالى نصف قرن على مجمع نيقية، وبعد أن مرت فترة عصيبة فى الكنيسة بسبب الأريوسية الناكرة للاهوت السيد المسيح ومساواته للآب فى ذات الجوهر، وكان البطل الحقيقى هو البابا الإسكندرى أثناسيوس الذى نُفى خمس مرات قبل نياحته .الآن استقرت الكنيسة الجامعة على رفض مجمع نيقية للأريوسية. لقد وضعت الإسكندرية الأساسات اللاهوتية الثابتة، وجاء الآباء الكبادوك كمهندسين معماريين يقدمون مبنى المصطلحات اللاهوتية الخاصة بالإيمان الثالوثى المستقر فى الكنيسة الجامعة .

الآباء الكبادوك الثلاثة

أنجبت ولاية كبادوكية فى آسيا الصغرى (تركيا حاليًا) جيلاً واحدًا من الآباء العظماء، كان له أثره الفعّال على الفكر اللاهوتى المسيحى. هؤلاء الآباء العظماء هم القديسون باسيليوس الكبير أسقف قيصرية وصديقه غريغوريوس النزينزى وأخوه غريغوريوس أسقف نيصص.

يُعتبر الثلاثة تلاميذ للعلامة أوريجانوس والقديس أثناسيوس الرسولى[١].

جاءت كتاباتهم اللاهوتية امتدادًا للفكر الأثناسيوسى، بعد أن استقر اللاهوت من جهة مفاهيم المصطلحات اللاهوتية الخاصة بالإيمان الثالوثى.

مع ارتباط الآباء الثلاثة الكبادوك الوثيق ببعضهم البعض فى الفكر والروح، ومع قيام صداقة حميمة بينهم دامت مدى الحياة، إلا أن كلاً منهم حمل طابعًا خاصًا فى شخصيته. فعُرف القديس باسيليوس الكبير أنه رجل العمل والمشّرع الرهبانى، بينما عُرف القديس غريغوريوس النزينزى بسيد الشعر والبلاغة الجذّاب فى كرازته، أما القديس غريغوريوس أسقف نيصص فيُعتبر **المفكر اللاهوتى** البارع والذى اتسم بالفكر الميتافريقى (ما وراء الطبيعة) والقدرة على تقديم اللاهوت،

خاصة فى شرح الثالوث القدوس والتمييز بين الجوهر والأقنوم، والتجسد الإلهى، كما كان قديرًا فى تفسيره الرمزى الروحى[٢].

الجو الدينى المعاصر

يكشف لنا القديس غريغوريوس أسقف نيصص فى إحدى مقالاته عن الجو الدينى فى منطقته، أو قل جو العالم المسيحى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط، قائلاً إن العلمانيين كانوا مشغولين بالحوار اللاهوتى خاصة مع الأريوسيين. إن ذهبت إلى صراف يحدثك عن "المولود" و"غير مولود"؛ وإن سألت خبازًا عن ثمن الخبز أجابك أن الآب أعظم من الابن[٣]... لقد اقتنع الكل أن العالم غير المنظور الذى يتعامل مع اللاهوتيات هو بالحقيقة العالم الحق الذى يلزم الانشغال به خلال الحياة اليومية.

بمعنى آخر كان الحديث فى اللاهوتيات سائدًا بين العلمانيين كما يسود الآن الحديث عن المباريات الرياضية والسياسية.

الآباء الكبادوك والإيمان الثالوثى

واجه البابا أثناسيوس البدعة الأريوسية فاهتم جدًا بتأكيد لاهوت السيد المسيح ومساواته للآب فى ذات الجوهر الواحد، وتوضيح العلاقة بين الآب والابن. إنه لم يتجاهل الأقنوم الثالث، فقد دافع عن لاهوت الروح القدس خاصة فى رسائله إلى الأسقف صرابيون... وتحدث بقوة عن الثالوث القدوس. لكن واضح أن غالبية جهده كان مركزًا ضد الفكر الأريوسى الذى انشغل باختلاف الجوهر بين الآب والابن[٤].

فى منتصف القرن الرابع تغيَّر الوضع تمامًا، فقد مات آريوس وصارع الأريوسيون ضد الإيمان الحق، لكن الكنيسة استقرت فى إيمانها، وصارت الحاجة بالأكثر إلى وضع صيَغ لاهوتية تعبر عن الفكر الإنجيلى الكنسى الثالوثى لاستخدامها فى العبادة.

في هذا الجو الجديد ظهـر الآبـاء الكبـادوك الثلاثـة. إنهـم لـم يصـارعوا مـع آريوس الذى مات منذ زمن طويـل، لكنهـم واجهوا بعـض الأريوسـيين المتـأخرين مثل أنوميوس Eunomius [٥] ومقاومى الروح Pneumatomachi مثـل أوسـتاثيوس[6] Eustathius السبسطائي. لكن وضعهم يختلف تمامًا عن وضـع البابا أثناسيوس، لأن دور الأخـير لـم يكـن منصبًا علـى مقاومـة أريـوس وأتباعـه فحسـب إنمـا توضيـح الإيمان لجسم الكنيسة الجامعة. أما الكبادوك فواجهوا تيار الهراطقة وقـد رفضتهـم الكنيسة... كان الكل يشعرون أنهم خارج الحياة الكنسية.

---

1. Stanley M. Burgess: The Spirit and the Church: Antiquity, 1984, P.132.
2. Quasten: Patrology, vol. 3, P.203-4; Hilda C. Graff: St. Gregory of Nyssa, vol. 18, P.3 Ancient Christian Writings.
3. Cf. De deitate Filli. PG 46:557.
4. Maurice Wiles: The Christian Fathers, SCM 1977, P. 44.

٥- أنوميوس مات سنة ٣٩٤م: من أصل كبادوكي، سيم أسقفًا على Cyzicus في مسيا Mysia. أريوسـي المعتقد، تتلخـص عقائده في الآتي:

أ- الابن ليس مولودًا من الآب وواحدًا معه في الجوهر، إنما جبله الآب مباشرة وأعطاه قوة الخلق، بها صار مشابهًا له.

ب- احتل الروح القدس المركز الأول بين الكائنات التي خلقها الابن، وهو أداته في تقديس النفوس.

جـ- تقوم التقوي لا على الابتهال إلي الأسماء المقدسة، ولا باستخدم الطقوس والرموز، وإنمـا فـي دقـة التعليم الـذى يتجـاهل الأسرار الكنسية والممارسات النسكية.

لم تدم تعاليمه كثيرًا، فسرعان ما نُسيت... بقيت أهميتها فيما كتبه الآباء الكبادوك عن الثالوث القـدوس خـلال نقدهـم لتعاليمـه Cross: Oxford Dict. of the Christian Church, 1974, P. 480.

٦. أوستاثيوس (حوالى ٣٠٠- حوالى ٣٧٧م): أسقف سبسطية في بنطس منذ حوالى سنة ٣٥٧. كان في شبابه تلميذًا لأريوس. كان اهتمامه الرئيسى منصبًا على الحركة الرهبانية، في تنظيمه الذى احتل مركزًا هامًا بالنسبة له. خـلال هذا الاهتمـام يبـدو انه تأثر بالقديس باسيليوس الكبير ودخل معه في صداقة حميمة عند تأسيسه نظام رهبنته ولكن إلى حين.
دافع عن تعليم الشبه homoiousion بين الآب والابن، وفى أيامه الأخيرة صار القائد الروحى فى آسيا الصغرى للهرطقة المقدونية أو لمقاومى الروح القدس Ibid 483.



القديس غريغوريوس أسقف نيصص

أحد الآباء العظام، دعاه القديس غريغوريوس النزيانزى : "عمود الكنيسة كلها"، ولقبه الأب مكسيموس المعترف : "معلم المسكونة"، كما دُعى "أب الآباء"، و "كوكب نيصص[١]".

نشأته

وُلد من أبوين مسيحيين تقيين غنيين ذى صيت، فى مدينة قيصرية الكبادوك، يُسميان باسيليوس وإميليا. وكان باسيليوس هذا محاميًا وخطيبًا، ذا مركز سامٍ فى المجتمع، له خمسة أبناء وخمس بنات، وكان أكبرهم القديس باسيليوس الكبير أسقف قيصرية، يحمل اسم أبيه.

وُلد أصغر الأبناء حوالى سنة ٣٣٥ أو ٣٣٦م، لذا غالبًا ما وُلد غريغوريوس "الابن الثالث" حوالى سنة ٣٢٩ أو ٣٣٠م، وكان باسيليوس يكبره كثيرًا فى السن، إذ كان غريغوريوس يتحدث معه كابن مع أبيه أو تلميذ مع معلمه، ويتطلع إليه وإلى أخته ماكرينا بكل وقار وتكريم.

من بين إخوته بطرس أسقف سبسطية، وأيضا القديسة ماكرينا التى كان لها دورها الفعّال فى حياة إخوتها بما تمتعت به من مواهب فكرية وتقوية ونسكية. خُطبت هذه الفتاة العجيبة فى سن مبكر، وأُصيب خطيبها بحمى فمات. وضعت فى قلبها أن تصير عروسًا للسيد المسيح، فكرّست حياتها للعبادة وتربية إخوتها. اشتركت مع والدتها اميليا فى إقامة جماعة ديرية نسائية فى ممتلكاتهما ببنطس فى منطقة أنسيس Annesis على ضفاف نهر Iris. اقتفى أخوها باسيليوس أثرها، وكرَّس حياته مثلها، وصار متوحدًا فى نفس المنطقة. اجتذب إليه صديقه غريغوريوس النزينزى، وعكفا على العبادة ودراسة كتابات أوريجانوس، وأصدرا مقتطفات له تحت اسم "الفيلوكاليا [١]"، كما أقاما ديرًا.

فى أيام الاضطهاد الذى أثاره دقلديانوس Diocletian Persecution هرب أجداده إلى منطقة بُنطس Pontus الجبلية لأجل الأمان، وقد عانوا متاعب كثيرة.

قيل إن جده لأمه قد استشهد وفقد ممتلكاته. لكن بعد سنوات قليلة يبدو أن العائلة عادت إلى العاصمة "قيصرية الكبادوك" أو فى "قيصرية الجديدة" فى بنطس واستقرت هناك.

مات والده باسيليوس فى سن صغير، تاركًا أبناءه وبناته تحت رعاية جدتهم ماكرينا وأمهم اميليا. وقد عُرفت الجدة والأم بحياتهما المسيحية الملتهبة بالروح والتقوية. وقد ساهمت معهما الابنة ماكرينا الحاملة اسم جدتها فى تربية وتعليم إخوتها، وقد دعيت ملاك الأسرة[٢].

لم يكن غريغوريوس ميالاً إلى الحياة الدينية؛ طلبت منه والدته أن يشترك مع الأسرة فى احتفالها بعيد شهداء سبسطية الأربعين، إذ كانت قد بنت كنيسة على رفاتهم، لكنه لم يرد الحضور، وتحت الإلحاح ذهب على مضض. إذ نام فى الاحتفال رأى بستانًا جميلاً أراد دخوله فمنعه الأربعون شهيدًا، عندئذ استيقظ من نومه نادمًا على ما فرط منه، وقرر أن يمارس الإيمان المسيحى طالبًا صلوات هؤلاء الشهداء.

دراسته

بلا شك أن ما بلغ إليه القديس غريغوريوس من حياة تقوية وعلم ومعرفة وشهرة مدين به إلى أسرته العجيبة من الجانب النسائى، فإنه مثل القديس تيموثاوس الذى كان مدينًا لجدته لوئيس وأمه افنيكى اللتين أنشأتاه بين أحضان الكتاب المقدس (٢ تى٣: ١٥). لقد تربى غريغوريوس على أيدى نساء تقيات: جدته وأمه وأخته، لكل منهن بصمات التقوى والورع انطبعت على حياته. نستطيع أن نقول إن قليلين حظوا بما ناله غريغوريوس من بركة الدفء الأسرى العجيب، الذى ألهب فيه حب اللّه، وقدم له صورة واقعية حيّة عن السماء ولغتها: لغة الحب والعبادة المفرحة التقوية!

يبدو أنه لم يُنفق عليه كثيرًا فى تعليمه مثل أخيه الأكبر القديس باسيليوس. فإننا لم نسمع قط أنه التحق بجامعات أجنبية، وقد اعترف بنفسه أنه لم يتتلمذ على أيدى معلمين مشهورين[٣]. وإنما كثيرًا ما كان يكرر الإشارة إلى معلم واحد هو

باسيليوس، الذى امتدحه كثيرًا، وحسبه "أعجوبة العالم كلـه"، والمثـل الأعلـى للفيلسوف الحقيقى[٤]. وضعه مع القديسين واعتبر كتاباته مُوحى بها. يقول عنه إنـه "بالحقيقة خُلق حسب إرادة الله، وتشكلت نفسه على صورة الخالق[٥]". من يقرأ كتاباته يشعر أنه يعتمد على باسيليوس حتى ولو لم يشر إليه بالاسم[٦].

كمثال فى كتابه Hexameron يذكر أن كل ما ورد فى عمله هذا من أمور مدهشة هو من وضع أخيه باسيليوس، وأما الأمور الأقل فهى من عمله هو كتلميذ. وفى بدء حياته كتب رسالة إلى ليبانيوس Libanius قال فيها إنه قد تمتع بالحياة مـع الجماعة التى لأخيه باسيليوس إلى حين، وأن ما يكتبه فى الواقع هو من صنع أخيه[٧].

كان منذ صباه مولعًا بالدراسة، لكنه كان خجولاً ضعيف البنية[٨].

اهتمامه بالعلم الزمنى

أراد فى البداية أن يكون كاهنًا مثل أخيه القديس باسيليوس، وقد صـار بالفعل فى صباه واعظًا lector لكنه لم يشعر بأن هذا العمل يناسب شخصيته وميوله فتركه. وكما أعلن القديس غريغوريوس النزينزى بغضب فى رسالة له إنـه قد سمح لنفسه أن يستبدل الكتب المقدسة بكتب العالم المُرة والبغيضة، وقَبِلَ أن يُدعى "خطيبًا أكثر منه مسيحيًا[٩]". لقد صار يمارس حياته الزمنية العالمية كخطيب أو كمدرس للبلاغة rhetor، يطلب المجد الزمنى.

زواجه

يبدوا أنه قد تزوج، كما يظهر ذلك من مقاله "عن البتولية"، إذ نجده يتأسف أنه لم ينل مجد هذه الفضيلة[١٠]. غير أن البتولية فى فكره ليست امتناعًا عن الزواج، ولا مجرد طهارة للجسد، وإنما هى نقاوة تشمل الحياة كلها: بتولية الجسد والنفس والفكر والأحاسيس.

في خطاب صديقه القديس غريغوريوس النزينزي[11] جاء الحديث عن ثيؤسيبيا Theosebia في عبارات تُظهر بقوة أنها زوجة غريغوريوس أخي باسيليوس الكبير، وإن كان البعض يرى أنها مجرد شمّاسة؛ عُرفت بفكرها الراجح ومحبوبة جدًا.

مدحها القديس غريغوريوس أسقف نيصص فيما بعد حتى عندما كتب عن البتولية، ودعاها القديس غريغوريوس النزينزي صديقته القديسة وأخته الطوباوية، بل وعند نياحتها رثاها، قائلاً: "فخر الكنيسة وبركة جيلنا"... هكذا كان ينظر إليها القديس بإجلال وإكرام.

جاء في مقاله عن البتولية:

"يبدو أن روعة البتولية عديمة الفائدة وبلا جدوى بالنسبة لي، فهي تشبه القمح للثور المكمم الذي يدرسه، أو كالماء الذي ينبع من هوة سحيقة لإنسان عطشان لا يقدر أن يصل إليه.

ربما توجد فرصة لمن لايزال لهم حرية الاختيار للطريق الأفضل، ولم ينغمسوا بعد في اهتمامات الحياة الدنيوية، بخلافنا نحن الذين بعُدنا عن البتولية المجيدة. لأنه لا يقدر أن يتسلق على جبال البتولية من وضع قدمه مرة في الحياة العالمية وتزوج. وما نحن إلا ناظرون إلى غبطة آخرين، أو شهود على سعادة فئة لا ننتسب إليها. لأننا في عرضنا لبعض الأفكار عن البتولية لانكون أسعد حالاً من الطباخين وخدام موائد الطعام الذين يحضرون ما لذّ وطاب لموائد الأغنياء دون أن يكون لهم أي نصيب في الموائد التي أعدوها...

نحن نشبه أولئك الذين يقارنون فقرهم بثراء الأغنياء...[12]"

رهبنته

بعد أن قطع غريغوريوس شوطًا كبيرًا في البلاغة والأدب، طموحًا نحو مراكز هذا العالم وشهرته كان صديقه القديس غريغوريوس النزينزي يحثه على تكريس حياته للعبادة والخدمة الإلهية كأخيه باسيليوس وأخته ماكرينا، فتأثر جدًا بكلماته.

يبدو أن غريغوريوس سيم كاهنًا، وأن زوجته بقيت معه فى الخدمة يسلكان كأخ وأخت. مدحها القديس غريغوريوس النزينزى وتحدث عن تقواها وتكريس حياتها للأعمال الصالحة، فاستحقت أن تُدعى "زوجة كاهن" وكما قال عنها "ثاؤسيبياه his Theosebia" ، حاسبًا أن علاقتها بزوجها علاقة روحية أكثر منها طبيعية، خاصة وأننا لم نسمع أنها قد أنجبت أطفالاً[١٣].

يرى البعض أنها انضمت إلى القديسة ماكرينا في ديرها، عاشت حتى بعد رسامة زوجها أسقفًا.

انطلق القديس غريغوريوس المتزوج ولكن بقلب ملتهب بالبتولية إلى فلسطين ومصر لزيارة الآباء الرهبان والنساك المتوحدين، والتحق بالدير الذى أسسه أخوه القديس باسيليوس فى بُنطس Pontus على نهر Iris بجوار أناسيس Annesi حيث وُجد دير الراهبات تحت قيادة أخته ماكرينا.

استراحت نفسه تمامًا، وتحول طموحه للمجد الزمنى والمعرفة الزمنية إلى شوق شديد إلى الحياة الرهبانية الهادئة النسكية ودراسة الكتاب المقدس وتفاسيره، وتتلمذ إلى سنوات على كتب العلامة أوريجانوس.

كانت الحياة الرهبانية تناسب مواهبه وقدراته وأيضًا شخصيته. فمن ناحية لم يكن له أصدقاء كثيرون خارج أقربائه الملتصقين به. خطاباته المعروفة صمتت عن أن تذكر الكثير عن أصدقائه. لقد مارس حياة الرهبنة منشغلاً بدراسة اللاهوت والفلسفة[١٤].

لقد بقى القديس غريغوريوس على اتصال دائم بالرهبنة (حتى بعد أسقفيته) ويبدو أنه كان يقيم فى الدير من حين إلى آخر.

كانت أخته الكبرى ماكرينا رئيسة دير للراهبات هناك، وكان ملتصقًا بها جدًا. لقد دعاها "معلمته"، وخصص كتابًا سجل فيه حياتها، وخاصة ساعة نياحتها حيث كان حاضرًا معها. فيما بعد كتب حوارًا على شاكلة Phaedo لأفلاطون، يحوى حوارًا "عن النفس والقيامة"، مظهرًا أن هذا الحوار قد تم بينه وبين أخته فى لحظاتها الأخيرة على الأرض[١٥]، كما سنرى بأكثر توسع.

أسقفيته

في عام ٣٧٠م سيم القديس باسيليوس الكبير أسقفًا على قيصرية الكبادوك، ولما كان الامبراطور فالنس الأريوسي قد بدأ يشن حملة اضطهاد ضد السالكين حسب إيمان مجمع نيقية أراد القديس باسيليوس أن يحيط نفسه بمجموعة من الأساقفة المستقيمي الرأي، فأنشأ أسقفيات جديدة قدر المستطاع. سام أخاه غريغوريوس أسقفًا على نيصص. بعد قليل سام القديس غريغوريوس النزينزي أسقفًا على ساسيما Sasima، جنوب قيصرية، على الطريق إلى كيليكيا Cilicia.

بذل القديس غريغوريوس النزينزي كل الجهد لعدم قبول الأسقفية، لكن صديقه أصر أن يضع يده عليه بغيرَ إرادته. لقد نجح في سيامته أسقفًا لكنه لم يقدر أن يلزمه بالقيام بأعمال الأسقفية في ساسيما. قيل إنه لم يُقم هناك قداسًا واحدًا، ولا سام كاهنًا واحدًا. كانت المنطقة خربة تمامًا، لا يوجد فيها ماء ولا زراعة، كل ما فيها هو التراب وضجيج العربات العابرة هناك على الدوام. أما سكانها فكانوا مجموعة من المتشردين والغرباء والجلادين مع من حُكم عليهم بالاعدام مربوطين في قيود، يصرخون ويتأوهون. وقد سببت هذه الإيبارشية الكئيبة متاعب كثيرة للقديس غريغوريوس[١٦].

في خريف سنة ٣٧١م قبل غريغوريس بغير إرادته الأسقفية على إيبارشية نيصص، وهي مدينة صغيرة مجهولة تبعد حوالي عشرة أميال غرب العاصمة، قيصرية الكبادوك.

كما نعلم من إحدى رسائل القديس باسيليوس[١٧] أن أخاه لم يكن يرغب في استبدال حياته الرهبانية المكرسة للدراسة والتأمل في هدوء وسلام بالتزامات الأسقفية الضخمة.

كانت المدينة مجهولة حتى أن صديقهما يوسابيوس الساموساطي كتب إلى القديس باسيليوس يعاتبه لأنه يدفن شخصًا مشهورًا في إيبارشية مجهولة. فأجابه القديس انه لم يفعل ذلك بسبب نقص في إمكانيات أخيه أو لعدم استحقاقه، فإنه يستحق أن يتسلم خدمة الكنيسة كلها مجتمعة معًا، وإنما ستنال الإيبارشية شهرة

بأسقفها لا الأسقف بإيبارشيته [١٨]. وبالفعل تحققت نبوتـه هذه واشتهرت نيصص بسبب أسقفها.

بالرغم من قبوله الأسقفية بغير إرادته إلا أنه لم يتضايق من أخيه القديس باسيليوس كما فعل القديس غريغوريس النزينزى؛ بل ذهب بالفعل إلى نيصص، وبقى هناك.

لم يكن مُوفقًا فى عمله الأسقفى، وقد انتقده أخوه على عدم حزمه فى معاملاته مع الناس وفى تدبير الأمور المالية، وحسبه عاجزًا عن التصرف بما يناسب السياسات الكنسية[١٩].

يرى البعض أنه لم يُعد غريغوريوس ليكون أسقفًا بل مفكرًا وفيلسوفًا؛ كانت له العين الفاحصة المدققة، وُهب وزنة غير عادية فى نظام تفكيره[٢٠].. كأنه قد خُلق ليكون لاهوتيًا أكثر منه أسقفًا.

ربما فى بداية أسقفيته حدث خلاف بين باسيليوس وعمه (أو خاله) غريغوريوس أحد الأساقفة الكبادوك. وبنية صادقة وبساطة شديدة حاول غريغوريوس أسقف نيصص أن يصالحهما فسقط فى خطأ غير لائق به كمسيحى. لقد بذل كل جهد للمصالحة، وإذ فشلت كل مجهوداته زوَّر رسالة كما لو كانت من عمه، وجهها إلى أخيه، فيها يعلن عن شوقه الشديد نحو المصالحة. لكن الأمر انكشف فاتسع الخلاف بالأكثر، وسقط غريغوريوس فى حرج شديد ووبخه أخوه بعنف. على أى الأحوال، إن كان قد أخطأ بتزويره الرسالة، لكن من أجل محبته الشديدة للسلام، وبصلواته تحققت المصالحة فيما بعد.

نفيه

لم تكن الأسقفية بالنسبة له طريقًا مفروشًا بالورود، بل بالعكس كانت سلسلة لا تنقطع من المتاعب والاضطهادات. قلنا إنه بطبيعته الهادئة كان يميل إلى حياة الرهبنة والدراسة، فكان عميقًا فى دراسته اللاهوتية، خاصة عن الثالوث القدوس. لهذا بدأ فى أسقفيته يقدم دراسته فى هدوء وبعمق، الأمر الذى أثار الأريوسيين

وأتباع سابليوس[٢١]. لقد أدركوا خطورته اللاهوتية على بدعهم وسط هدوئه والذى يجتذب الكثيرين؛ فبعلمه اللاهوتى وتقواه يحطم فساد معتقداتهم.

من جانب آخر واجه القديس مقاومة عنيفة منهم (من قادة كنسيين شبه أريوسيين Semi-Arians) كنوع من الانتقام من باسيليوس[٢١].

حاول الإمبراطور الأريوسى فالنس Valens التخلص من الأساقفة المخلصين لمجمع نيقية.

فى نهاية عام ٣٧٥ عُقد مجمع فى أنقرة Ancyra من الأساقفة الأريوسيين، موجهين اتهامين رئيسيين ضد القديس غريغوريس:

١- بطلان سيامته لأنها تخالف القوانين الكنسية.

٢- تبديد أموال الكنيسة التى تركها سلفه، هذا الاتهام وجهه شخص يُدعى فيلوخاريس Philocharis.

أرسلت فرقة من الجند للقبض عليه واقتياده إلى موضع المحاكمة. فى الطريق حلت به قشعريرة شديدة، وشعر بآلام مرض حاد، فطلب من الجند أن يسمحوا له بالعلاج، لكنهم صموا آذانهم عن طلبه، وعاملوه بشئ من القسوة، وكانوا يسرعون به.

بطريقة غامضة هرب من بين أيديهم بالرغم من مراقبتهم له بحرص، واختفى فى موضع للعلاج.

جمع القديس باسيليوس مجمعًا من الأساقفة الكبادوك الأرثوذكس، وباسم المجمع بعث رسالة جريئة ووقورة إلى ديموسثينيس Demosthenes، يعتذر فيها عن عدم حضور غريغوريوس أمام المجمع، مظهرًا بطلان الاتهامات الموجهة ضده. أما بخصوص بطلان سيامته، فيجب ألا يُوجه إليه الاتهام بل إلى من ساموه، فإنهم هم المسئولون عن سيامته. كما كتب رسالة لحساب أخيه وجهها إلى شخص له تقديره يدعى أستورغوس Astorgus يرجوه التدخل ليخلصه من مأساة محاكمته أمام القضاء[٢٣].

بعدم ظهور القديس غريغوريوس لم يحقق المجمع هدفه. يبدو أن الرسالة أيضًا لم تحقق هدفها، فقد أقيم مجمع آخر بأمر ديموسيثنيس Demosthenes وذلك

خلال تحرك قوى من جانب إيوستاثيوس أسقف سبسطية Eustathius of Sebaste، لكن رفض القديس الظهور أمامه.

فى سنة ٣٧٦م عُقد مجمع فى نيصص بواسطة أساقفة أريوسيين، وعُزل القديس من إيبارشيته فى غيبته، بأمر الإمبراطور.

هرب القديس من إيبارشيته، إلى موضع غير معروف. لكنه من الأكيد لم يذهب إلى منطقة أناسيس Annesis، لأنه ذكر فى كتابه "عن حياة ماكرينا"، انه لم يذهب هناك ما بين عامى ٣٧٢ و ٣٨٠. واضح مما جاء فى بعض رسائله أنه التجأ إلى بعض أصدقائه ويرى البعض انه ذهب إلى سيلوكية[٢٤]. من الملاحظ أنه فى هذه الفترة بدأ ينشغل بأفكار أخيه باسيليوس الخاصة بالإصلاح الروحى. بدأ يساعد أخاه فى تأسيس الرهبنة فى كبادوكية، وفى النهاية كتب مقاله "عن البتولية". كتبها كإنسان سبق له الزواج وارتبط بزوجته فى علاقة مقدسة ومحبة روحية؛ لكنه شعر بسمو الحياة البتولية التى خلالها يتفرغ القلب والفكر وكل الطاقات للعبادة والخدمة خارج الالتزامات الأسرية.

عاش القديس هذه الفترة فى حياة تأملية ودراسة ممتعة للكتاب المقدس، لكن نفسه أيضًا كانت مُرة من جهة شعبه وإيبارشيته،كما لم يتركه الأعداء فى راحة، بل كانوا يتعقبونه من موضع إلى آخر، ويسببون له متاعب جسدية[٢٦].

كشفت لنا رسالته التى وجهها إلى أوتريس Otereius أسقف Melitene بشرق كبادوكية على نهر الفرات أو بالقرب منه عن مرارة نفسه، جاء فى مقدمتها:

[رأيت بصورة كاملة الوضوح نفسك الجميلة حقًا، وذلك من خلال عذوبة رسالتك التى كما يقول الإنجيل : "من فضلة القلب" امتلأت عسلاً..

حالنا يشبه أولئك الذين فى ظروف معينة قد أُصيبوا بظمأ لا ينطفئ، فبقدر ما أتذوق لطفك أزداد عطشًا.

إن لم تدرك أن لغتنا ليست تملقًا ولا إطراءًا غير حقيقى ... فإنك لا تصدق ما أقوله: **إن نفع رسالتك صار لعينىّ علاجًا طبيًا أوقف ينبوع الدموع الدائم الفيض، وبثبات رجائنا فى دواء صلواتك المقدسة يُشفى مرض نفوسنا حالاً،**

شفاءً كاملاً. بالرغم من أنه فى الوقت الحاضر حالنا هو هكذا: فقد حُرمنا من وجود أُذن صاغية إلينا، كما دُفن الحق فى صمت حتى لا نسحب من يحبوننا بالحق للشركة معنا فى أتعابنا.

عندما نأخذ فى اعتبارنا أن الحرمان مما هو أعز مالدينا هو دخول فى حروب، إذ نحرم من أبنائنا الذين اضطررنا أن نتركهم، ومن أبنائنا المرتبطين بنا جدًا بناموس الحب...[25]]

أظهرت الرسالة انه كان أحيانًا ينتحب الظروف القاسية التى اضطرته إلى اعتزال أبنائه الروحيين الذين سندهم فى حياتهم الروحية بأتعاب وآلام كثيرة، والتى حرمته من كل من هم أعزاء لديه فى بلده: أى من إخوته وأقربائه وأصدقائه، ليعيش بين أعداء خبثاء كانوا ينتقدون كل تصرفاته حتى مظهره وملابسه وحركاته، وجعلوا منها موضوع اتهام.

ذكر فى رسالته أنه صار يعيش على الذكريات الجميلة لحياته السابقة التى حُرم منها، حتى بالنسبة لمسكنه ومسوحه، وكان يقارنها بحاله حيث اضطر أن يسكن فى جحر خانق مظلم وبارد. وكانت تعزيته الأولى هى صلوات إخوته لأجله.

وجاء فى ختام رسالته: [على هذا الأساس اجتمعوا معًا لمحاربتنا، رجلاً برجلٍ، ومدينة بمدينة، حتى فى كل الأماكن النائية تمامًا. ولكن إن سندتنا معونتك دائمًا بنعمة اللّه، فإننا نحتمل فيض المضايقات على رجاء مشاركتكم صلاحكم. لهذا ليتكم لا تتوقفون عن منحنا مثل هذه المنافع التى بها ننتعش، وتعدون لأنفسكم قياسًا متسعًا لنوال المكافأة التى وُعد بها من يحفظ الوصايا.]

هنا يلزمنا أن نقف قليلاً لندرك أنه حتى العظماء من القديسين كانوا يمرون بلحظات ضعف. فإن كان القديس غريغوريوس قد قبل الآلام بشكر، لكنه فى لحظات ضعفه كان يئن ويصرخ، بل ويشكو إلى صديقه غريغوريوس النزينزى الذى بعث إليه رسائل تعزية تسنده وسط محنته.

للأسف فقُدت رسائله إلى القديس غريغوريوس النزينزى، لكن أمكننا التعرف على ما ورد فيها من خلال إجابات صديقه عليها.

كتب إليه صديقه يقول له إنه وإن كـان قد حُرم من تحقيق شـهوة قلبـه أن يصحبه فى منفاه، لكنه يشعر أنه حاضر معه فـى الروح. وأنـه واثـق فـى اللّـه أن عاصفة شديدة لابد أن تجتاح الموقف، وأن اللّه يعطيه حتمًا النصرة على مقاوميـه، ويسنده بسبب استقامة إيمانه[٢٦].

إذ كان يهرب من موضع إلى آخـر شبَّه نفسـه بقصبـة علـى سطح مجـرى المياه تتحرك من هنا وهناك بلا هدف. أما القديس غريغوريـوس النزيـنزى فأجابـه بأن تحركاته فى الواقع كشبه الشمس التى تبعث الحياة لكل من حولها أو كالكواكب التىتتحرك بقانون ثابت[٢٧].

بمعنى آخر بينما كان القديس غريغوريوس أسقف نيصص فى وسط آلامـه يحسب هروبه مضيعة للوقت، وخسارة وحرمانًا من الخدمة، إذا بصديقـه يرى يـد اللّه الحكيمة التى تحوّل حتى ما نحسبه خسارة نفعًا. وأن مـا يحل بنـا من متـاعب هو بسماح إلهى لبنيان أنفسنا والكنيسـة. وكأننـا فـى يديـه كـالكواكب المنيرة التـى يحركها بخطة إلهية فائقة.

إذ كان صديقه فى ثقه كاملة أن اللّه لابد أن يحطم الهرطقة الأريوسـية أمـر صديقه أن يحيا بفرح وبهجة، مؤكدًا له أن أعداء الحق أشبه بالحيـات التـى تخـرج من جحرها فى وسط الظهيرة معتمدين على السلطان الإمـبراطورى المسـاند لهم، وبالرغم من حفيفهم المسـتمر، لكنهم فـى الوقـت المناسـب يعـودون إلـى جحورهـم ويظهر الحق. هذا يتحقق إن تركنا الأمر فى يد اللّه[٢٨].

لقد تحققت كلمات القديس غريغوريوس النزينزى [٢٩]، إذ لـم يمضِ عامـان حتـى مـات الإمـبراطور الأريوسـى فـالنس Valens ٣٧٨م، وتولـى الإمبراطـور جراتيان Gratian– صديق القديس أمبروسيوس وتلميذه [٣٠] الحكم، فـأصدر أمـره بعودة الأساقفة المنفيين والمُستبعدين من كراسيهم.

فى رسالة [٣١] ربما كتبها لأخيه القديس باسـيليوس وصـف اسـتقبال الشـعب له. كان الشعب يخـرج من القرى ليسـتقبلوه بكـل حفـاوة كغـالب ومنتصـر؛ كـانوا يهتفون ويهللون، وكانت دموع الفرح تنهمر من عيونهم.

قبل وصوله إلى نيصص هطلت أمطار غزيرة جعلت كثيرين يلتزمون بالبقاء فى منازلهم، لكن ما أن سمعوا بأن مركبته قد بلغت الطريق حتى تجمهر الكل حوله، حتى ساخت نفسه من الازدحام الشديد. كما شاهد بجوار الكنيسة أشبه بنهر من النار، وذلك من كثرة المشاعل التى حملتها العذارى القديسات أمامه.

نياحة أخيه

لم يدم فرح الشعب كثيرًا، ففى أول يناير سنة ٣٧٩م تنيح القديس باسيليوس، فتأثر جدًا، إذ كان يتطلع إليه كأب ومعلم.

إن لم يكن قد حضر لحظات نياحته فعلى الأقل حضر صلاة الجناز، وألقى كلمة؛ ونحن مدينون لها فى معرفتنا الكثير عن حياة القديس باسيليوس[٣٢].

لم يستطع صديقه غريغوريوس النزينزى أن يشترك فى الجنازة بسبب ثقل مرضه، فبعث رسالة عزاء وامتدح فيها القديس غريغوريوس بإطراء، وقال فيها إن عزاءه الرئيسى أنه يرى كل فضائل باسيليوس منعكسة على حياته كما فى مرآة[٣٣].

شعر القديس غريغوريوس أسقف نيصص بالالتزام أن يضاعف جهده ليكمل رسالة أخيه من جهة نشاطه الرعوى وعمله اللاهوتى وتنظيم الحركة الرهبانية.

شهرته اللاهوتية

نال القديس شهرة فائقة بسبب كتاباته اللاهوتية، فاشترك فى مجامع كثيرة لحل مشاكل لاهوتية.

أصدر ثيؤدوسيوس الكبير قرارًا بتعيين القديس غريغوريوس أسقفًا مركزيًا لكل إيبارشية بُنطس، هذا القرار يعنى أنه وإن كان مركزه الكنسى ليس بذى أهمية لكنه صار المشير الموثوق فيه للحكومة، له الكلمة الأخيرة فى استبعاد الأريوسيين وإقامة أساقفة جدد يتبعون الإيمان النيقوى[٣٤].

فى سبتمبر سنة ٣٧٩م اشترك فى مجمع أنطاكية الذى انعقد لغرض مزدوج:

١- الانقسام الأنطاكي، الذى لم يستطع المجمع معالجته.

٢- تأكيد الغلبة على الأريوسية.

في رجوعه من المجمع وقف في أناسيس ليلتقي مع أخته ماكرينا في الساعات الأخيرة من حياتها على الأرض.

سجل القديس سيرة أخته منذ ميلادها، بل وقبل ميلادها، في شئ من التفصيل في رسالة بعث بها إلى الراهب أولمبيوس Olympius [٣٥]. كما قدم مقالاً عن النفس والقيامة[٣٦] قدمه تكريما لأخته. قدم أيضًا عرضًا للحظات نياحتها وهى على سرير الموت، حيث قدم حوارًا نسبه إليها، موضوعه حزنه الشديد على نياحة أخيه باسيليوس، وكيف حولت أخته حزنه إلى حديث ممتع عن السمويات.

في قصة حياة أخته ماكرينا التي كتبها، جاء على لسانها أنها قالت بان شهرته قد انتشرت وتألقت، فصار اسمه يتردد في المدن والكنائس وبين الأمم وكانت "الكنائس تدعوه وترسل إليه ليقف بجوارها في جهادها ولتنظيمها [٣٧]".

عاد إلى إيبارشيته ليجد بعض الهراطقة جاءوا من غلاطية إلى نيصص ينشرون هرطقه "أتباع أنوميوس [٣٨]". في الأحد الأول بعد أول يناير ٣٨٠م ألقى عظة عن هذه الكارثة[٣٩].

في نفس العام دُعي إلى ايبورا Iborua في أرمينيا الصغرى Armenia Minor بالقرب من أناسيس لمناسبة اختيار أسقف جديد لها [٤٠]. هناك التقى بمندوبين قادمين من سبسطية يستعرضون صراعًا داخليًا [٤١]. وجد نفسه وسط حرب دينية بين أريوسيين وسابليين وأتباع نيقية[٤٢].

في عيد القيامة لعام ٣٨٠م رجع إلى نيصص حيث ألقى ثلاث عظات قصيرة عن القيامة [٤٣] والصعود[٤٤] والعنصرة[٤٥]، كما كتب رسالة إلى أخيه بطرس أسقف سبسطية.

في عام ٣٨١م اشترك في مجمع القسطنطينية المسكوني، حيث كان له دوره الفعّال. قدم عظة في افتتاح المجمع "على سيامته On His Ordination"، وإن

كان البعض يشك فى إلقائها فى المجمع. هناك اتجهت إليه الأنظار كأحد قادة الكنيسة العظماء فى الشرق.

حمّله المجمع مسئولية بعض البلاد، وجعله حكمًا مع أوتريوس Otreius وهيلاديوس Helladius على كبادوكيا وبنطس.

أرسل إلى العربية للمصالحة بين أسقفين اختلفا بخصوص إيبارشية البصرة، وكانت هرطقة إنكار دوام بتولية العذراء Antidicomarianite قد بلغت القمة.

وفى عودته من العربية زار أورشليم والأراضى المقدسة، وإذ رأى بعض الزوار يسيئون التصرف هناك كتب رسالة شديدة اللهجة فى هذا الشأن [٤٦]. هناك أُتهم بالأبولينارية التى تنكر كمال ناسوت المسيح، إذ تحسبه يحمل جسدًا بدون نفس بشرية؛ فكتب رسالة يدافع فيها عن نفسه[٤٧].

فى نهاية عام ٣٨١ رجع إلى نيصص، وفى الشتاء التالى كتب ضد هرطقة أبوليناريوس، وأيضًا ضد أنوميوس.

عاد إلى العاصمة فى مناسبات كثيرة منها أن الإمبراطور ثيؤدوسيوس يدعو لعقد مجمع سنوى فى القسطنطينية، وفى المجمع الذى عُقد فى ربيع ٣٨٣م ألقى القديس عظة عن لاهوت الابن والروح القدس[٤٨].

فى عام ٣٨٥م أُختير ليلقى كلمة رثاء فى جنازة الأميرة الصغيرة بلخاريا Pulcheria، وبعد قليل قام بنفس العمل بالنسبة للإمبراطورة Flacilla فى القسطنطينية.

واجه القديس متاعب كثيرة من هيلاديوس أسقف قيصرية مما دفعه إلى تكريس حياته إلى التأمل والدراسة حتى تنيح.

روى هذه المتاعب فى رسالته إلى الأسقف فلافيان Flavian [٤٩]، التى افتتحها بقوله:

[حسنًا إنك تسأل: مما أشكو؟

لقد زالت التقوى من العالم تمامًا،

هرب الحق من وسطنا،

أمـا عن السـلام فقد أعتيد أن يُردد اسمه على شفاه النــاس فـى كـل المناسبات، أما الآن فقد زال السلام، حتى الاسم الذى يعبر عنه لم نعد نذكره.]

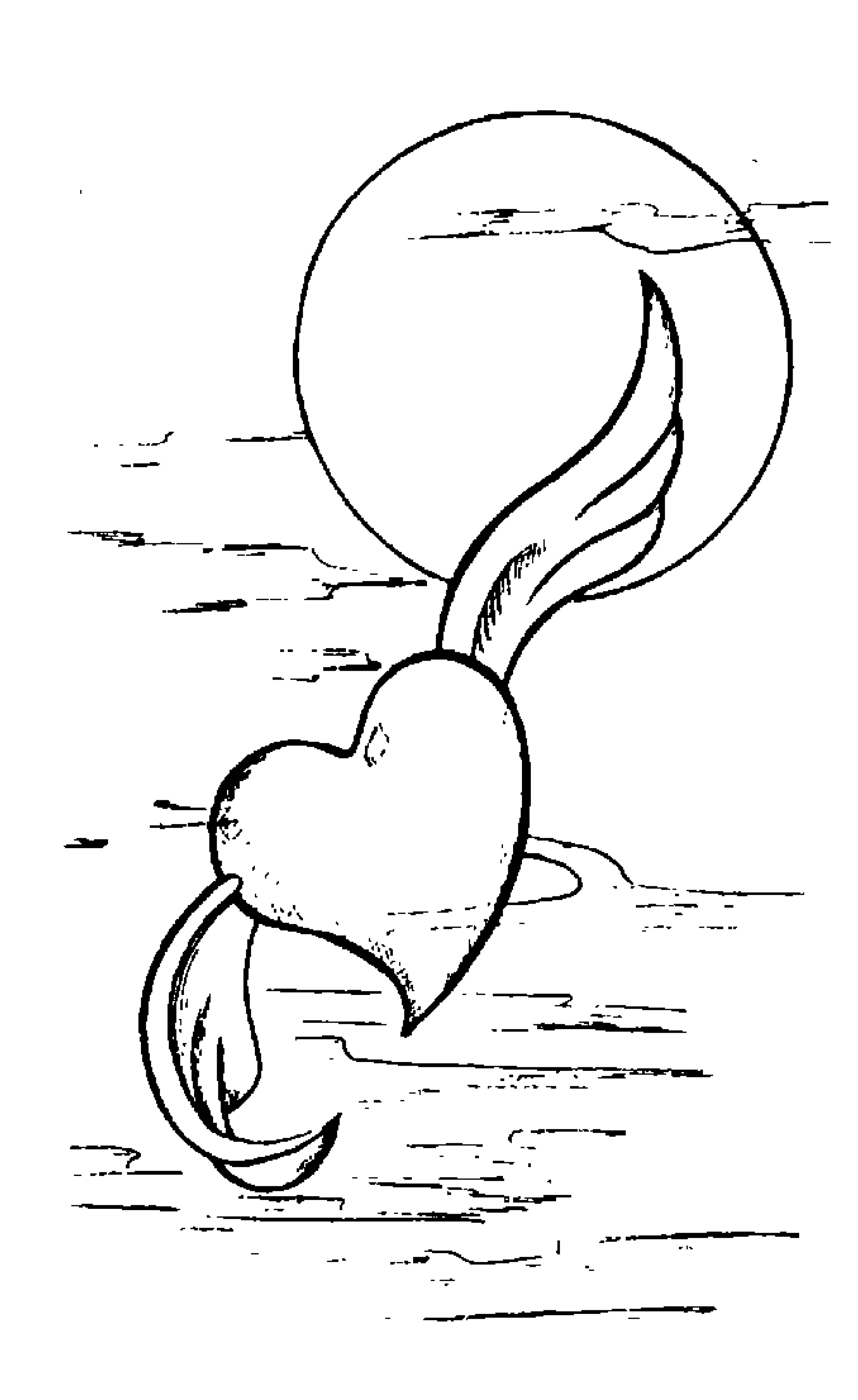
روى كيف رفض الاستماع إلى من أبلغوه بـان كلّىْ الاحـترام هيلاديوس يحمل له مشاعر عدائية، وأنه أرسل إليه شخصيًا رسالة كما لكثيرين ممن يستطيعون أن يحققوا السـلام. ذهـب إليـه راكبًـا علـى حصـان فـى الليـل، وقطـع رحلــة تبلــغ الخمسين ميلاً، وقد رفض هيلاديوس الترحيب به... وأخيرًا فى نهاية الرسالة أعلن أنه يترك الأمر للّه نفسه.

آخر مرة ظهر فيها فـى القسطنطينية عـام ٣٩٤ حيـث اشـترك فـى مجمـع هناك، غالبًا ما تنيح فى نفس العام.

---

1. Nicene & Post-Nicene Fathers, Second Series, Vol. 5, P. 1.
2. Ibid 1, 2.
3. Ep. 13:4 ad Liban.
4. Orat. in XL mart. PG 46:776 .
5. De Hom. Opif. PG 44:125 B.
6. De virginitate, Praef. PG46:320; CF. Hans Von Campenhausen: The Fathers of the Greek Church, London 1963, P.116-117.
7. N.P. Frs., P2.
8. Stanley M.Burgess , P.144
9. Greg. Naz. :Ep. 11 ad Greg.
10. Virginity, ch3. PG 46:32 A,B.
11. Ep. 197. PG 37:324.
12. De Virgintate, ch. 3.
ترجمة أحد الآباء بدير السريان: الناشر مكتبة مدارس التربية الكنسية بالجيزة ١٩٦٦، ص ٦٢، ٦٣.
13. Smith 06 Wace: A Dictionary of Christion Biography, london 1984, vol. 2, P. 762.
14. Hans Van Compenhausen, P.116.
15. I bid 118.
16. Louis Duchesne : Early History of the Christian Church, London 1912, P. 315
17. Ep. 225 385.
18. Ep. 98 259.
19. Ep. 100; 58; 59; 60.
20. Hans Von Compenhausen, P.115.
21. N.P. Frs., P. 5.
22. Smith a Wace, P.763.
23. Ibid 33358.
24. N.P. Frs. , P. 6.
25. Ibid 538.
26. Greg. Naz. Ep 1F2, tom. , P.866.
27. Ibid 34 32, P.798.
28. Ibid 35 33; P. 799.
29. Smith & Wace, P.764.
30. N.P. Frs. , P. 6.
31. Ep. 6 PG 46:1033A-1036B.
32. Smith & Wace, P.764.
33. Greg. Naz. Ep. 37 35; P.799.
34. Hans Von campenhausen , P. 119.

35. De vita S. macrinae Virg.
36. De anima et resurrectione.
37. Hans Von Campenhausen, P. 119.
38. Epistle 19. PG 46:1076C.
39. Against These Who Are Impatient in Suffering. PG 46 :308-316.
40. Ep.19. PG 46:1076C.
41. Ep. 19. PG 46 :1076D -1077A.
42. Ep. 19 PG 46 :1077 A-B.
43. Gregory's Fourth Sermon on Easter, PG 46: 681-684.
44. Sermon on the Ascension. PG 46: 689-693.
45. Sermon on the Holy Spirit. PG 46:696-701.
46. Ep. 3. PG 46 :1016 B-C.
47. Ep. 3. PG 46 : 1016 -1024.
48. PG 46 : 553-576.
49. N.P. Frs. , P. 545ff.



الباب الثانى

القديس
غريغوريوس أسقف نيصص
كتاباته

أولاً: كتاباته العقيدية Dogmatic writings

ثانيًا: كتاباته التفسيرية Exegetic writings

ثالثًا: كتاباته النسكية Ascetic writings

رابعًا: عظاته وخُطبه Sermons & Orations

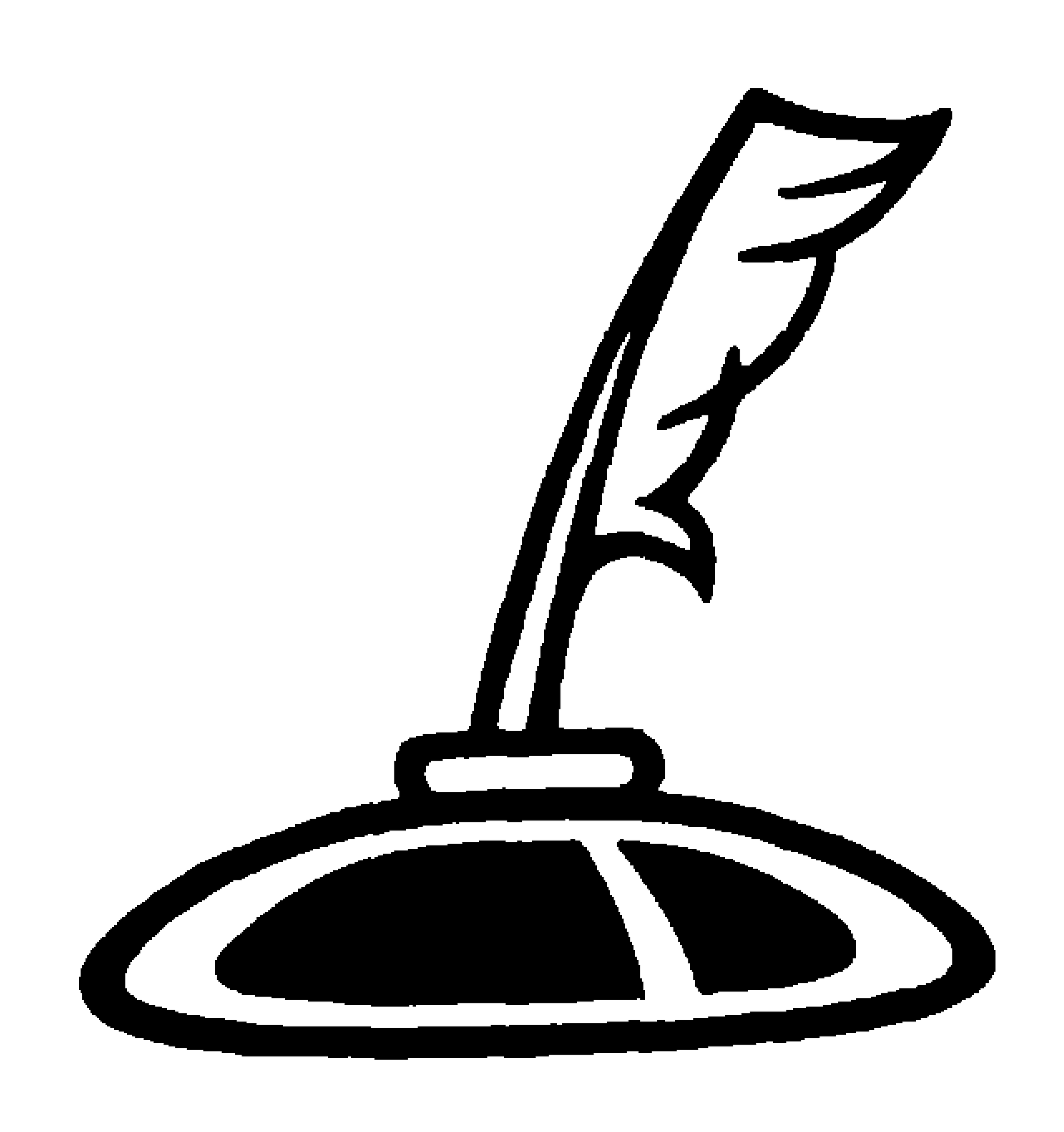
خامسًا: رسائله Letters

كتاباته

يعتبر بعض الدارسين هذا الأب هو الأعظم بين آباء الكبادوك الثلاثة الكبار ككاتب لاهوتى ومؤلف. كتاباته تحمل عمقًا لاهوتيًا، واتساعًا فى الفكر تفوق كتابات الأبوين الآخرين.

إلى فترة طويلة لم تلاقِ كتاباته اهتمام الدارسين. فقد تشكك بعض الخلقيدونيين فى البداية فى أرثوذكسيته بسبب ارتباطه الشديد بالعلامة أوريجانوس وتأثره به فى كتاباته الخاصة بالتفسير الرمزى، وربما لهذا السبب لم يضعوه فى دائرة المعلمين العظماء مثل القديس أثناسيوس وكيرلس وباسيليوس ويوحنا الذهبى الفم. وقد اعترف الخلقيدونيون بأرثوذكسيته فى مجمع نيقية الثانى عام ٧٨٧م(١).

1- Hilda C. Graff, P.3 (ACW, vol.18).



أولاً: كتاباته العقيدية

Dogmatic Writings

كان للقديس غريغوريوس أسقف نيصص دوره الحيوى فى مقاومة الهرطقات الكبرى فى عصره.

أهم كتاباته العقيدية جدلية، وهى[1]:

١- ضد أنوميوس Adversus (Contra) Eunomium

كتب القديس على الأقل أربع مقالات ضد انوميوس Eunomius، تعتبر من أعظم ما كُتب فى تفنيد الأريوسية.

أ- وضع المقال الأول عام ٣٨٠م ردًا على الكتاب الأول لأنوميوس.

ب- وضع المقال الثانى بعد الأول مباشرة، ردّ فيه على كتابه الثانى، وقد قُرأ المقالان ١،٢ عام ٣٨١ فى مجمع القسطنطينية المسكونى.

جـ- فيما بين عامى ٣٨١ و٣٨٣ كتب مقالاً فى عشر كتب فنّد فيه هجوم قائد أريوسى ضد أخيه القديس باسيليوس. وكان أخوه قد تنيح عام ٣٧٩م.

د- عندما كتب أنوميوس "**اعترافًا بالإيمان**" للإمبراطور ثيؤدوسيوس، كتب القديس مقاله الرابع، نقدًا مطولاً لاعتراف انوميوس، لا علاقة له بالمقالات الثلاث السابقة.

للأسف حدث خلط فى ترتيب هذه المقالات منذ القرن السادس.

سبق لنا الحديث عن انوميوس وأهم تعاليمه التى تتسم بالأريوسية[2]، إذ هاجم مساواة الابن والروح القدس فى الجوهر مع الآب Consubstantiality، وأزليتهما، مسيئًا استخدام بعض النصوص الكتابية.

قال عنه القديس غريغوريوس: [**أقول بماذا يمكن أن يُدعى إلا ضد المسيح Antichrist؟**[3]]

يرى أنه قد حرم نفسه من السيد المسيح الذى هو رأس الرجل (١ كو ١١: ٢)، بهذا صار بلا رأس، وكأنه قد قطع بسيفه أى بهرطقته رأسه منه فصار كجليات الذى فقد رأسه بسيفه(٤).

يقول إن أتباع انوميوس قد تركوا الإيمان المسيحى وارتدوا إلى فكر المجمع اليهودى ناكرى لاهوت السيد المسيح(٥). لقد قطعوا أنفسهم عن رجاء المسيحيين وصاروا أشر من اليهود الذين ينكرون مجيء المسيح لكنهم يترقبون مجيئه. أتباع انوميوس [رجموا ربنا بالألقاب المملوء تجديفًا... لقد احتقروا ميلاده الإلهى قبل الأجيال. انكروا ميلاده العظيم من الآب، الميلاد السامى غير المنطوق به، وأرادوا أن يبرهنوا أن وجوده ينتسب إلى الخليقة، مثل الجنس البشرى(٦)...]

واضح من كتابات القديس غريغوريوس أن انوميوس فى هجومه على الكنيسة هاجم ممارستها الروحية: رشم علامة الصليب، الصلوات الليتورجية، المعمودية، الاعتراف بالخطايا الخ (كتاب ١١، فصل ٥).

٢- ضد الأبولينارية موجهًا لثيؤفيلس أسقف الاسكندرية

Adversus Apollinaristas ad theophilum episcopum Alexandrinun

وجه القديس هذا المقال الصغير إلى بابا الإسكندرية ثيؤفيلس كطلبه، فيه فنّد الأبولينارية.

كان أبوليناريوس صديقًا للبابا أثناسيوس، وآمن بطبيعة المسيح الواحدة، لكن إيمانه يختلف تمامًا عن إيمان الإسكندرية. ففى نظر أبوليناريوس احتل **لاهوت المسيح محل النفس البشرية**، وقصده بهذا تأكيد وحدة شخص المسيح، **حاسبًا أن وجود نفس بشرية يعنى أن المسيح شخصان:(لاهوت المسيح والنفس البشرية).**

تختلف عقيدة أبوليناريوس تمامًا عن عقيدة الاسكندرية الخاصة بطبيعة المسيح الواحدة... وقد سبق لنا الرد على اتهام القديس أثناسيوس أو القديس كيرلس بالأبولينارية(٧).

سيم البابا ثاوفيلس عام ٣٨٥م، بهذا يكون هذا المقال قد كُتب فى السنوات الأخيرة من حياة القديس غريغوريوس.

٣- ضد الأبولينارية **Antirrheticus adversus Apollarem**

تُعتبر كتابات القديس أهم ما كتب ضد الأبولينارية.

فند القديس التعليم الأبوليناري الخاطئ بأن اللوغوس قد احتل محل النفس البشرية العاقلة في المسيح، وأن جسد المسيح نزل من السماء.

اتهم القديس غريغوريوس النزينزي أيضًا أبوليناريوس بالتعليم بوجود جسد سماوي قبل التجسد، وقد هاجم هذا الرأي: [**إننا لا نقول بأن جسد المخلص نزل من السماء، ولا أن جسده مساوٍ لله في الجوهر، بل انه الله بكونه متحدًا مع اللاهوت بكونه شخصًا واحدًا**(٨)]

٤- عظة على الروح القدس ضد أتباع مقدونيوس مقاوم الروح القدس Sermo Macedomianiano de Spiritu Sancto adversus Pneumatomachus.

وُجهت العظة ضد مقاومي الروح القدس Pneumatomachi قائد هذه الفئة والرئيس الممثل لها هو مقدونيوس، عُرف بتعاليمه شبه الأريوسية بخصوص الروح القدس. عُين أسقفًا على القسطنطينية بعد استبعاد بولس النيقي، وهو نفسه استبعده مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م.

اعتقد مقدونيوس أن الروح القدس [طاقة إلهية منتشرة خلال المسكونة، وليس أقنومًا متمايزًا عن الآب والابن(٩).]

قام الكاردينال ماي Mai بنشر العظة عام ١٨٣٣م، ومعها عظة أخرى: " عظة ضد الأريوسية والسابلية Sermo adversus Arium et Seballium" ، هذه الأخيرة ليست بقلم القديس غريغوريوس؛ ينسبها K. Holl للقديس ديديموس الضرير.

يقول القديس غريغوريوس إنه بينما لا يحدث خلط بين الروح القدس والآب إذ ليس هو العلة، ولا بينه وبين الابن بكونه الابن الوحيد، ومع وجود خواص متمايزة، لكنه في كل شيء مساوٍ لهما(١٠). كما يقول: [**إن كان الروح القدس بالحقيقة وليس فقط بالاسم يدعى إلهيًا بواسطة الكتاب المقدس وآبائنا، فعلى أي**

أساس يقوم اعتراض مقاومى مجد الروح؟ إنه إلهى، مطلق فى صلاحه، كلى القدرة والحكمة والمجد، أبدى.(١١)]

٥- إلى أبلابيوس Ablabius انه لا يوجد ثلاث آلهة

Ad Ablabium quod non Sint tres dii

وجه هذا المقال إلى أبلابيوس، وهو رجل كنسى أثار تساؤلاً: لماذا لا نتحدث عن ثلاثة آلهة عندما نتعرف على لاهوت الآب والابن والروح القدس؟

غالبًا ما كتب هذا المقال عام ٣٧٥م، وإن كان بعض الدارسين يرون أنه كتبه مؤخرًا فى حدود عام ٣٩٠م.

أ- يوضح فى هذا المقال أن كلمة "اللاهوت" أو "اللّه" تعبير يشير إلى "جوهر" أو "كيان"، وليس إلى أقانيم، لذا يجب دائمًا أن يُذكر فى المفرد (اللّه) مع كل أسماء الأقانيم. لهذا نقول: "اللّه الآب، اللّه الابن، اللّه الروح القدس". فالجوهر الإلهى واحد، **فلا نقول: "ثلاثة آلهة"، لأن الأقانيم الثلاثة يشتركون فى الجوهر الواحد.**

ب- ندعو ثلاثة أقانيم، لكل أقنومٍ عمله الخاص، لكنه لا يعمل فى عزلة عن الأقنومين الآخرين.

[فى حالة الطبيعة الإلهية لا نتعلم أن الآب يصنع شيئًا بذاته لا يصنعه معه الابن، ولا للابن عمل خاص منفصل عن الروح القدس.

كل عمل يصدر من الآب إلى الخليقة... يصدر أصله عن الآب، وينبثق خلال الابن، ويكمل فى الروح القدس(١٢).]

يوضح هذا المقال سرّ الثالوث القدوس:

فنحن نؤمن بإله واحد، لأنه طبيعة إلهية واحدة، جوهر إلهى واحد. نؤمن بالثالوث القدوس، لأن الأقانيم ثلاثة متمايزة لكنها غير منفصلة فى الجوهر وأيضًا فى العمل... وهنا يخطئ البعض لأنهم يخلطون بين التمايز والانفصال. ففى الطبيعة البشرية الواحدة لكل شخص جوهره الخاص، وتمايزه يعنى انفصاله عن غيره من الأشخاص بالرغم من اشتراك الكل فى طبيعة بشرية واحدة. أما الثالوث

القدوس فمتمايز، لكنه غير منفصل، لذا لا نقول بثلاثة آلهة بل بإله واحد بالرغم من دعوة الآب إلهًا وأيضًا الابن والروح القدس.

٦- إلى جرايسوس عن المفاهيم العامة

Ad Graecos ex Communibus notionibus

يعالج هذا المقال"On Common Nations" التعبيرات المستخدمة في التثليث، مستخدمًا الأسس العامة للمعرفة العقلية.

قدم F. Mueller طبعة حديثة للنص الكامل، غير أن المقدمة والخاتمة مفقودتان.

٧- إلى أوستاثيوس عن الثالوث القدوس **Ad Eustathium de sancta Trinitate**

وجه هذا المقال إلى الطبيب اوستاثيوس، فيه فنّد آراء مقاومي الروح القدس Pneumatomachi. يعرض فيه وجهة نظرهم وأيضًا وجهة نظره.

[يقولون بان قوة اللاهوت ممتدة من الآب إلى الابن، لكنهم يفصلون طبيعة الروح (القدس) عن المجد الإلهي.

على خلاف هذا الرأي، أقدم قدرما أستطيع دفاعًا مختصرًا عن موقفي.

إنهم يتهمونني بالاختراع، ويقيمون اتهامهم على اعترافي بالثلاثة أقانيم، كما يلومونني لأني أؤكد وحدانية اللاهوت؛ قوة واحدة، لاهوت واحد. وهم في هذا ليسوا بعيدين عن الحقيقة، فإنني أقول هذا(١٣).]

وُجد أغلب هذا المقال بين رسائل القديس باسيليوس الكبير، مثل الرسالة رقم ١٨٩ المنسوبة إليه خطأ. وربما لهذا السبب لا نجد هذا المقال بين كتابات القديس غريغوريوس في طبعة مني **Migne**.

٨- إلى سمبليكيوس عن الإيمان المقدس **Ad Simplicium de fide Sancta**

وجه هذا المقال إلى التربيون (المدافع عن حقوق الشعب أو المحامي العام) سمبليكيوس Simplicius، فيه دافع عن اللاهوت، وعن مساواة الابن والروح القدس

فـي الجوهـر Consubtantiality ضـد الأريوسـيين، مهاجمًـا تفسـيرهم الخـاطئ لنصوص كتابية.

المقدمة والخاتمة مفقودتان.

يعلق القديس في هذا المقال على دعوة الرسول السيد المسيح: **"بهاء مجده"** عب ١: ٣، موضحًا مساواة الابن للآب.

يقول بان الرسول يعني بهذا ان الابن يصدر عن الآب كما يصدر النور عن المصباح، والبهاء عن المجد، وأيضًا ان الآب لم يكن بدون الابن، لأنـه لا وجـود للمصباح بغير النور، ولا للمجد بغير البهاء.

واضح أن تعبـير "بهـاء مجـده" لا يقلـل مـن شـأن الابـن، بـل بـالعكس يؤكـد لاهوته ومساواته للآب؛ **لأنه لا يمكن القول بوجود الآب بغير بهائه... هل يمكن للنور أن يوجد دون بهائه؟! إنه لا يكون نورًا!**

٩- حوار عن النفس والقيامة مع أخته ماكرينا

Dialogus de anima et resurrectione qui inscribtur Macrinia

يدعو القديس أخته **معلمة** له، فقد كـانت سـندًا لـه فـي تربيتـه وتعليمـه حتـى النفس الأخير. فحين انهار أمامها فـي لحظـات حياتهـا الأخيرة بسـبب حزنـه علـى أخيـه، تمـالكت نفسـها وهـي هزيلـة الجسـد لتقـول لـه إنـه لا يليـق أن نحـزن علـى الراقدين كمن لا رجاء لهم.

افتتح هذا المقال بحديثه عن أخته ماكرينا وهي على فراش الموت، قائلاً:

[باسيليوس العظيم بين القديسين قد رحل إلى الله من هذا العالم. لقـد حزنـت عليه كل الكنائس!

كانت أخته "المعلمة" لا تزال حية، وقد سافرتُ إليهـا، لكـي نتبـادل التعزيـة من أجل فقدان أخيها.

كانت نفسي بحق مضروبة بالحزن، وذلك بتلك الصفعة المؤلمة، فبحثت عن شـخص يمكـن أن يحمـل ذات مشاعري علـى قـدم المسـاواة، حتـى يمـزج دموعـه بدموعي.

إذ كنا معًا في الحضرة ألهبت رؤيتي للمعلمة كل آلامي، إذ كانت راقدة منبطحة حتى الموت... لقد حاولت أن تصلح من أمرى بالحديث معى، وأن تصحح بلجام (شكيمة) براهينها ما أصاب نفسى من تشويش. لقد اقتبست كلمات الرسول إنه لا يليق بنا أن نحزن على الراقدين، فإن هذه هى مشاعر من لا رجاء لهم. وبقلب يعتصر ألما سألتها: "كيف يمكن للبشر أن ينفذوا ذلك؟(١٤)]

حوى المقال أفكاره عن أصل الإنسان وقيامة الجسد ومصير الإنسان.

١٠- ضد فاتى Contra Fatum

مقال صغير ضد فاتى **Fate**، فيلسوف وثنى فى القسطنطينية. كتبه القديس سنة ٣٨٢م يدافع فيه عن حرية الإرادة ضد "القدرية" أو القضاء والقدر القائم على التنجيم، حيث يعتقد الفيلسوف أن مصير الإنسان يتوقف على حال الكواكب عند لحظة ميلاده.

لقد هاجم القديس هذا الاتجاه الخطير، مستخدمًا فى كثير من مقالاته الجانب الايجابى، وهو تأكيد **"حرية الإرادة" الإنسانية، حاسبًا انها هبة اللّه لمحبوبه الإنسان أن يحمل صورته "الحرية"، بكونه الملك الذى أقامه اللّه فى العالم كمن هو فى قصره الملوكى ليحكم ويسيطر على الخليقة الأرضية دون السيطرة على أخيه الإنسان.**

بهذه الحرية يختار الإنسان إما الاستعباد للشهوة بعصيانه أو التمثل باللّه حيث تتجلى فيه الصورة الإلهية، ويدخل إلى الكمال، وينعم بشركة المجد السماوى.

نعود إلى الحديث عن "الحرية" فى الفصل الخاص بالإنسان.

١١- التعليم العظيم Oratio Catchetica Magna

من أهم أعماله العقيدية، فيه عالج التعاليم الخاصة بالثالوث القدوس والتجسد الإلهى والخلاص والتقديس والأفخارستيا والإيمان. يُعتبر هذا العمل عملاً دفاعيًا كرازيًا.

إن كان قد أخذ شكلاً شائعًا، إلا أنه يُعتبر أول محاولة بعد أوريجانوس لشرح التعليم المسيحى ككل فى وحدة واحدة. سبقه العلامة أوريجانوس بكتابه "عن المبادئ *De Principiis*".

ما حرك القديس غريغوريوس من أعماقه ليست المواضيع اللاهوتية التقليدية، وإنما **مشاكل الإنسان**: تحقيق خلاص الإنسان، وسموه، وخلوده، ونظرته للجسد، ورؤيته للّه الخ... هذه الأمور يتحدث عنها بين الحين والآخر، وبطريقة مستمرة فى أغلب كتاباته(١٥).

يتحدث عن **التجسد الإلهى** ان غايته هو اتحاد اللاهوت بالناسوت القابل للموت، لكى نتحد به فنتأله، أى ننعم بشركة سماته(١٦).

يقول عن سرّ العماد:

[النزول إلى الماء وتغطيس الشخص ثلاث مرات فيه يحوى سرًا آخر. فقد تحققت وسيلة خلاصنا لا بوصاياه خلال التعليم قدرما تحققت بالأعمال التى مارسها. لقد حقق شركة عملية مع الإنسان.

وغيَّر الحياة كحقيقة حية، فبالجسد الذى أخذه... جعل كل ما يمس هذا الجسد وينتسب إليه يخلص معه. كانت هناك ضرورة إلى ابتكار وسيلة ما حتى يكون هناك نوع من الشبه فى عملية العماد؛ الشبه بين من يتبعه وذاك الذى يقود الطريق (السيد المسيح)(١٧).]

أما عن سر **الأفخارستيا** فيقول:

[أعلن اللّه عن نفسه انه اتحد بناسوت قابل للموت، حتى يمكن للبشرية أن تتأله (تحمل شركة سماته)، وذلك بتدبير نعمته.

إنه ينشر نفسه فى كل مؤمن خلال هذا الجسد، الذى يتحقق (بتحول) الخبز والخمر، رابطًا نفسه بأجساد المؤمنين، **كى يضمن بهذا شركة الإنسان فى عدم الفساد باتحاده مع الخالد(١٨).**]

كما يتحدث فى نفس الفصل عن جسد الرب الأفخارستى كعلاج لأجسادنا التى امتزجت بسم الخيانة، قائلاً:

[إذن ما هو العلاج؟ لا يوجد سوى ذاك الجسد نفسه الذى أظهـر أنـه أسـمى من الموت، وقد صار باكورة حياتنا. وكما يقـول الرسـول (١ كـو ٥:٦) انـه بهـذه الوسيلة خميرة صغيرة تخمر العجين كلـه، هكـذا بنفس الطريقـة هـذا الجسـد الـذى وهبه اللّه الخلود عندما يكون فى أجسادنا يحولها ويرفعها إليه.]

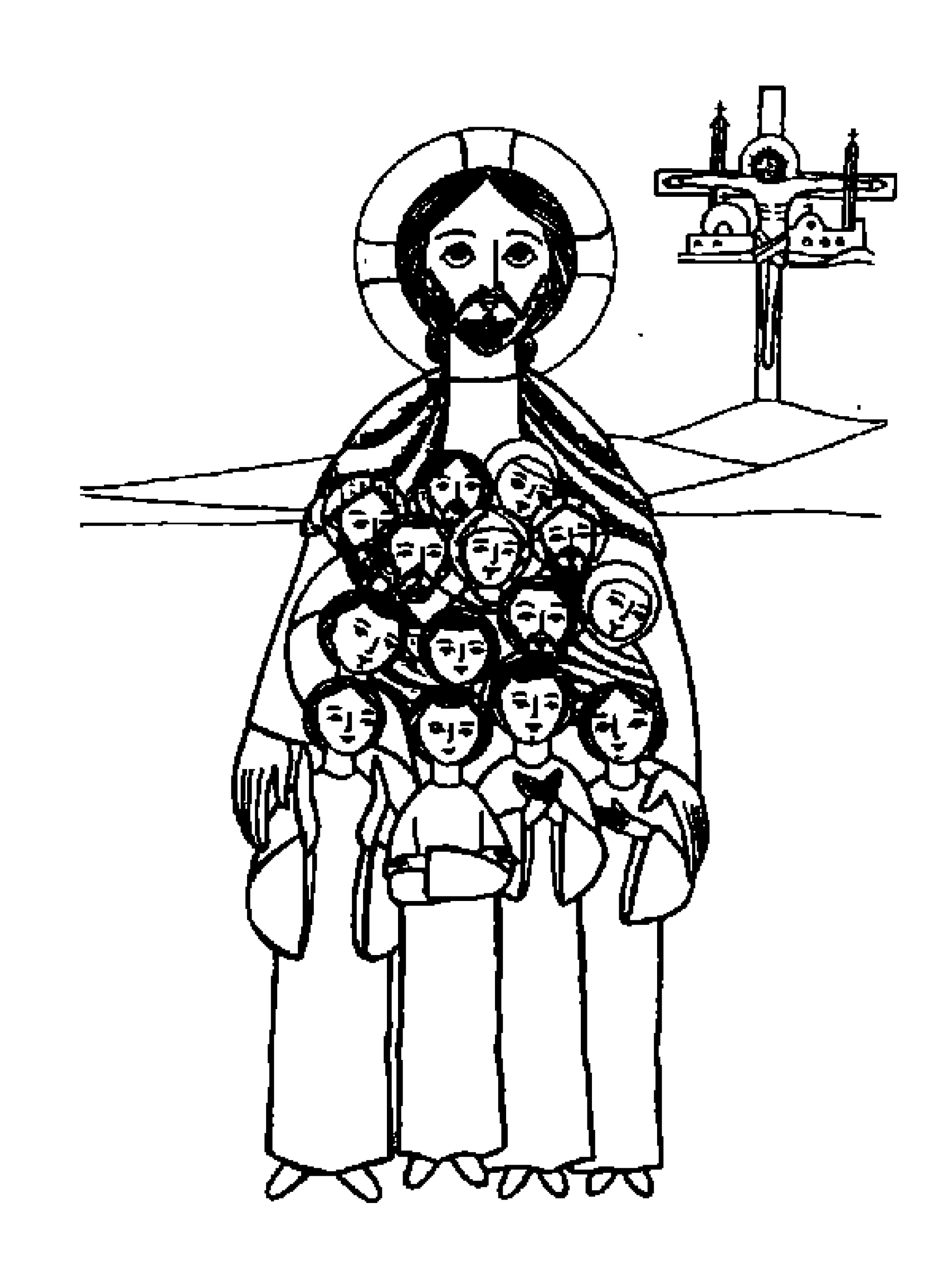
1- For more details see Quasten: Patrology, vol. 3, P. 257- 262.

٢- راجع ص

3- N.P. Frs., Series 2, vol. 5, P 239.
4- Ibid 250.
5- Against Eunomius 1:15;
6- Ibid 1:21

٧- للمؤلف: كنيسة القبطية الأرثوذكسية: كنيسة علم ولاهوت، ١٩٨٦، ص ٨٨-٩٥.

8- Ep. 101:6.
9- Socrates: H.E. 4:4.
10- N.P. Frs, P 315-6.
11- Ibid 316.
12- ibid 334.
13- Ad. Eust. de sancta Trinitate 3-4.
14- N.P. Frs, P. 430.
15- See Hans von Compenhausen, P.122.
16- The Great Catechism 37.
17- Ibid 35.
18- Ibid 37.



ثانيًا: كتاباته التفسيرية

Exegetic Writings

تشهد كتاباته التفسيرية عن إعجابه الشديد بالعلامة أوريجانوس، فقد استخدم أساسيات طريقته الرمزية، ماعدا مقاليه عن قصة الخلق، اللذين كُتبا كطلب أخيه بطرس أسقف سبسطية(١).

١- خلقة الإنسان De Opificio Hominis

غاية هذا العمل هو تكملة عظات القديس باسيليوس عن "الهكساميرون Hexaemeron" أو "أيام الخلق الستة".

فى المقدمة يعلن القديس انه يبعث بهذا العمل إلى أخيه بطرس كهدية عيد القيامة ليضيفه إلى مقال باسيليوس "أبينا ومعلمنا المشترك".

كتبه غالبًا بعد نياحة أخيه باسيليوس (أول يناير ٣٧٩م) مباشرة إن لم يكن فى أيام غريغوريوس الأخيرة.

فيه قدم تفسيرًا أنثروبولوجيًا ونفسانيًا للعبارة الواردة فى تك ١: ٢٦، متجاهلاً بحالٍ ما التفسير اللاهوتى.

فى المقدمة يقول:

[مجال عملنا المُقترح ليس بالأمر البسيط. لا تأتى (خلقة الإنسان) كعملٍ ثانٍ لأية أعجوبة من أعاجيب العالم... ربما هى أعظم من كل العجائب التى نعرفها، فإنه لا توجد خليقة على شبه الله غير الخليقة البشرية.]

لم يناقش خلقة العالم بالتفصيل، لكنه أشار إليها لكى يؤكد أن العالم قد أعد **لكى يمارس الإنسان سلطانه وملوكيته** (فصل ٢-٥).

يحمل الإنسان التشبه بالله خلال العقل، لكنه يختلف عنه، لأنه يعتمد على الأحاسيس والأمور الخارجية. أما الجسد فيختلف عن جسم الحيوان، لأن **جسد الإنسان هو أداه للعقل، كما أن نفسه العاقلة تعتمد على الحواس الجسدية**. وكأن معرفة الإنسان تقوم على تفاعل الجسد بحواسه مع العقل.

خَلق الإنسان على صورة اللّه، لكنه فقدها بالخطيـة، وصـار فـى حاجـة إلـى إصلاح إلهى.

تعرض لموضوع الوجود السابق للنفـس، فرفـض الفكـرة، مؤكـدًا أن النفـس والجسد يأتيان إلى الوجود معًا (فصل ٢٨،٢٩).

٢- شرح جدلى فى الهكساميرون (أيام الخلقة الستة)

Explicatio Apologetica in Hexaemeron

هذا هو العمل الثانى بخصوص الخلقة كتبه ليصحـح بعض اللبس فـى فهـم نصوص كتابية وتفاسير للقديـس باسيليوس، وأيضـًا يقدم تـأملات ميتافيزيقيـة (مـا وراء الطبيعة).

أوضح القديس باسيليوس أنـه اهتم بتقديم التفسير الحرفـى لا الرمـزى(٢)، وقد حاول أخوه القديس غريغوريوس أن يقتفى أثره فى العملين الخـاصين بالخليقـة اللذين يعتبرا امتدادًا لعمل القديس باسيليوس.

قرب نهاية المقال أظهر رضاه بأنه لـم يسـتخدم التفسير الرمـزى بـل الـتزم بالتفسير الحرفى لما ورد فى الكتاب المقدس. بينمـا فـى أعمالـه التفسـيرية الأخـرى وجد لذته فى التفسير الرمزى وراء كل كلمة جاءت فى الكتاب المقدس.

٣- حياة موسى De Vita Moysis

يشرح حياة موسى مستلم الشريعة بعبارات رمزية توضح صعود النفس إلى الاتحاد باللّه.

يحوى هذا العمل جزئين يستعرضـان طابعين مختلفين للتفسير الكتابى.

الجزء الأول **يلخص حياة موسى العملية** حسب ما ورد فى سفرى الخـروج والعدد. فى هذا الجزء يهتم بالتفسير الحرفى.

الجزء الثانى وهو الجزء الرئيسـى مـن العمـل، يحـوى **تفسـيرًا رمزيـًا فيـه يظهر موسى النبى رمزًا لصعود النفس وهجرتها إلى اللّه.**

تعتبر الدراسات الحديثـة هذا العمل تـاج أعمـال القديـس غريغوريـوس فـى **"الحياة التأملية" أو السرية** mysticism(٣).

يتحدث القديس غريغوريوس عن موسى النبى أيضًا **كمثال للفضيلة** فيقول: [يعلمنا الكتاب المقدس أن نوحًا كان بارًا، وإبراهيم مؤمنًا، **وموسى وديعًا**، ودانيال حكيمًا، ويوسف طاهرًا، وأيوب بلا عيب، وداود ذا نفسٍ عظيمة(٤).]

وفى موضع آخر يقول: [بدأ إعلان الله للعظيم موسى بالنور، بعد ذلك تحدث معه فى السحابة، وعندما صار موسى أكثر مجدًا وكمالاً رأى الله فى الظلمة (الخفاء)(٥).]

كما قال: [من لا يعرف تلك الدرجات التى بلغها موسى؟ كان يتعظم على الدوام ولم يتوقف قط عن نموه... التأمل فى وجه (الله) هو رحلته التى بلا نهاية تحققت بسيره وراء الكلمة مباشرة(٦).]

٤- المزامير In Psalmorum Incriptiones

وضع كتابين تحت عنوان "المزامير"، فيهما طوّر فكرة كتب للمزامير.

يرى كثير من اليهود أن هذه الكتب تطابق أسفار موسى الخمسة:

الكتاب الأول: مز ١-٤١	يطابق التكوين: الإنسان وخلاصه.
الكتاب الثانى: مز ٤٢-٧٢	يطابق الخروج: الجماعة والخلاص.
الكتاب الثالث: مز ٧٣-٨٩	يطابق اللاويين: الهيكل الجديد.
الكتاب الرابع: مز ٩٠-١٠٦	يطابق العدد: الأرض الجديدة.
الكتاب الخامس: مز ١٠٧-١٥٠	يطابق التثنية: كلمة الله الحيّ.

يرى القديس غريغوريوس أن هذه الكتب تمثل خطوات متتالية على السلم تقود المؤمن إلى الكمال.

هذه الفكرة "**سلم الكمال**" نلتقى بها فى مقاله عن "التطويبات".

وقد صارت هذه الفكرة محبوبة لدى النساك المتأخرين، وظهرت بصورة قوية فى كتاب "سلم الفردوس Scala Paradisi" للقديس يوحنا كليماكوس، أو الدرجى.

أضاف إلى هذين العملين عظة على المزمور السادس.

٥- ثمان عظات على الجامعة Ecclesiates

فى عظاته هنا يعلن عن فكرة الحياة الروحية كسلم يقودنا إلى الكمال، خلاله تصعد النفس فوق عالم الحواس.

٦- خمس عشرة عظة على نشيد الأناشيد

قام الدكتور جورج نوّار بتعريبها وسنقوم بنشرها قريبًا بمشيئة الرب.

يبلغ تفسيره الرمزى القمة فى عظاته على نشيد الأناشيد، حيث يرى فيها اتحاد الحب بين اللّه والنفس البشرية فى شكل عرس(٧).

لقد تأثر فى هذا بالعلامة أوريجانوس فى تفسيره للسفر، وقد امتدح القديس عمل العلامة أوريجانوس، وقد صارت هذه الفكرة مقبولة لدى كل المفسرين الرمزيين.

ركز العلامة أوريجانوس على الكنيسة بكونها العروس، أما القديس غريغوريوس فركز على النفس البشرية دون تجاهل للكنيسة.

٧- عُرافة عين دور De Pythonissa

قدم هذا المقال للأسقف ثيؤدوسيوس، عالج فيه موضوع عرّافة عين دور (١ صم ٢٨: ١٢ الخ)، أكد فيه أن العرّافة لم ترَ صموئيل النبى كما يظن العلامة أوريجانوس، إنما شاهدت شيطانًا لبس صورة النبى.

٨- عظات على الصلاة الربانية De Oratione Dominica

إن قورنت بتفاسيره الرمزية تُعتبر هذه العظات نصائح أخلاقية أكثر منها تفاسير رمزية، وإن كانت لا تخلو من التفسير الرمزى.

فى الواقع أن الأفكار المحبوبة لديه مثل المعنى الرمزى لقدس الأقداس وإعادة صورة اللّه فى الإنسان إلى بهائها الأصلى تتكرر كثيرًا فى هذه العظات.

تتسم هذه العظات بأنها عملية إلى حد كبير، مملوءة بأمثلة متنوعة ليس فقط من الحياة العملية السلوكية والاجتماعية، وإنما بالأفكار الخاصة بالطب والعلم في عصره، يسنده في هذا دراساته وعمله كخطيب.

أ- تبدأ بمقدمة عن **الحاجة إلى الصلاة**، وعن إهمال كثير من المسيحيين لممارسة الصلاة. كما تحدث فيها عن **عمل الصلاة لإعادة صورة اللّه في الإنسان**، التي أفسدتها الخطية، وأفقدتها جمالها الأصلي.

فمن كلماته عن فاعلية الصلاة:

[يكرس كل أحدٍ طاقاته جميعها للعمل الذي بين يديه، ناسيًا عمل الصلاة تمامًا، إذ يظن أن الوقت الذي يعطيه للّه ضائع بالنسبة للعمل الذي يهدف إلى تحقيقه... فيترك الصلاة جانبًا، ويضع رجاءه في يديه، غير متذكرٍ ذاك الذي وهبه اليدين...]

[بالحقيقة الذهن الذي يركز كل انتباهه إلى الأمور المادية الأرضية يحرم نفسه من تكريسها لما هو أفضل: الأمور السماوية.]

[**إن بدأ العمل بالصلاة لا تجد الخطية لها مدخلاً في النفس.**]

[**الإنسان الذي لا يتحد مع اللّه بالصلاة ينفصل عن اللّه**. لهذا يلزمنا أن نتعلم أولاً ان نصلي في كل حين ولا نمل (لو ١٨:١).]

[الصلاة هي ختم البتولية، عربون الأمانة في الزواج؛ تُحصِّن الهارب، وتحمي النائم، وتشجع الساهرين.

إنها تجلب محصولاً وفيرًا للمزارع، وميناءً آمنًا للبحّار.

الصلاة هي المحامي عنك في القضاء...

الصلاة هي متعة الفرحين وعزاء المتألمين.

هي إكليل عرس العروسين، والحفل المفرح في يوم الميلاد، والكفن الذي يحوط بالموتى.

الصلاة هي التصاق باللّه، وتأمل غير المنظور.

إنها تشبع اشتياقاتنا، وتجعلنا مساوين للملائكة(٨).]

جاءت العظات الأربع التالية تعالج طلبات الصلاة الربانية واحدة فواحدة، تعالج ما اتسم به عصره من فساد، خاصة الطمع والنهم.

بين الحين والآخر يترك القديس الجو السلوكي ليطير في جو الجمال الإلهي. ينتقل من التفسير الحرفي إلى التفسير الروحي الرمزي، متأثرًا باللاهوت الإسكندري الذي يصعب على القارئ المعاصر تتبعه(٩)، وإن كان التفسير الرمزي هنا أقل مما ورد في الكتابات الأخرى.

جـ- توجد في آخر العظة الثالثة عبارة عقيدية خاصة بالتثليث، سقطت من بعض المخطوطات، ويتشكك بعض الدارسين في نسبتها للقديس غريغوريوس.

مقارنة بين تفسيره للصلاة الربانية وما ورد في كتابات الآباء

ليس هو أول من قام بتفسير الصلاة الربانية بين آباء الكنيسة في الشرق.

نجد مقتطفات **للقديس اكليمندس الإسكندري** في تفسيره للصلاة الربانية، موزعة بين كتاباته، لكنها تكفي لتعطينا فكرة عن نظرته التفسيرية.

وقام **العلامة أوريجانوس** بشرحها بالتفصيل في مقاله: "عن الصلاة".

وصنع **القديس كيرلس الأورشليمي** نفس الشيء في عظته الخامسة: "العظات السرائرية".

كما فسرها **الأب ثيؤدور الميصي** ووضع مقالاً فيها.

تحدث Hilde C. Graff عن مدى **تأثر القديس غريغوريوس بسابقيه العلامة أوريجانوس والقديس كيرلس الأورشليمي**، يمكن تلخيصه في النقاط التالية:

أ- للنظرة الأولى يتفق مع أوريجانوس في نظرته للمؤمن كابن للّه، **فهو يدعو اللّه أبًا له إن حمل سلوكًا** يليق به كابن للّه، وإن تنقت حياته من الشر. تقوم بنوة الإنسان على أساس نقاوة سلوكية للضمير الصالح، هذه الفكرة للبنوة موجودة عند أوريجانوس الذي يبرهن عليها بعبارات كتابية كثيرة، بينما يطور القديس غريغوريوس مفهوم "اب" على أساس أخلاقي. إن كان إنسان ما يعرف كيف يُقدِّر

الصفات الإلهية فإنه لا يجسر أن يدعو نفسه ابنًا للّه مـا لـم يجد هذه الصفـات فيـه أيضًا.

البنوة للّـه عند أوريجـانوس والقديس غريغوريـوس هـى للصـالحين، وهـى تقابل بنوة الأشرار للشيطان.

ب- تفسيره للطلبة الثانية الخاصة بـ"ليأت ملكوتك" تقوم عنده علـى أسـاس فلسفى بينما اعتمد أوريجانوس والقديس كيرلس الأورشليمى على عبارات كتابية.

يفند القديس رأى القائلين بأن اللّه ليس ملكًا الآن، مؤكدًا **انه ملك المسكونة من الآن.** فإنـه ليس ملكـوت فـى العـالم فـوق ملكوت اللّـه الـذى يتأسس فـى كـل موضـع، يقوم من خلال الطاعة بكامل حرية المؤمنين.

يتحقق سـلطان اللّـه أو ملكوتـه داخـل **النفس بكونـهـا أرض المعركـة**، ذلك بالغلبة على الخطية والموت، والتمتـع بعلاقـة قُربـى مقدسـة مـع اللّـه. **هكذا يركـز القديس على الجهاد من أجل التمتع بالملكوت، بينما يركـز العلامـة أوريجـانوس علـى حضـرة اللّـه واهـب التطويـب فـى النفـس البشـرية، أمـا القديـس كـيرلس الأورشليمى فيركز أنظاره على المفهوم الأخروى.**

جـ- التقـابل بينـه وبيـن العلامـة أوريجـانوس - المدرسـة التـى تربـى فيهـا القديس - ملاحظ جدًا فى تفسيره للطلبة الرابعة.

بالنسبة **لأوريجانوس** لم يقل بأن الخبز اليومـى الـوارد فـى الصـلاة الربانيـة خبز عادى، فإن ربنا يسوع طلب منا أن نسأله عن الأمور السـماوية العظمـى، أمـا الخبز المادى فلا يُمكن أن يُحسب من بينها(١٠). لقد برهن من الكتاب المقدس أنـه يمكننا أن نجد معانٍ كثيرة فى تعبير "الخبز". فقد يعنـى أحيانًـا "**الإيمـان**"، وأحيانا يقصد به "**المسيح نفسه**"، وثالثة يُقصد بـه "**جسده الأفخارستى**". لهذا فهو يفسـر كلمة "**ايبوسيوس**" بمعنى "**الجوهرى**"، بكونها مشتقة من كلمة "اوسيا" أى "الجوهر". فالخبز فى الصلاة الربانية هو الخبز الجوهرى الذى ينعش نفوسنا ويهبها صحـة وقوة وخلودًا.

أما بالنسبة للقديس غريغوريوس فيراه **الخبز** المادى العادى، وبصفـة عامـة كل ما هو ضرورى لحفظ وجودنا الجسمانى دون الحياة المترفة المدللة.

يختلف أيضًا مع العلامة أوريجانوس في تأكيد أنه ليس فقط يمكننا أن نصلي من أجل الأمور الزمنية بل ويلزمنا الصلاة من أجلها.

إنه يتخلى عن تفسير أوريجانوس لكلمة "ابيوسيوس" بكونها مشتقة من "أوسيا"، ويحسبها تعني مجرد "اليومي".

علاوة على هذا فهو يحد الصلاة بطلب ما يخص يومًا واحدًا، فلا يليق بنا أن نطلب ما يخص الغد. أما أوريجانوس فعلى العكس يعرض بأدلة كتابية كثيرة ان استخدام كلمة "يومي" في الكتاب المقدس غالبًا ما يُفهم منه كل حياتنا الحاضرة، هكذا تفهم في الصلاة الربانية.

تبع القديس كيرلس الأورشليمي تفسير العلامة أوريجانوس حاسبًا الخبز هو الأفخارستيا، وقد رفض معه قبول التفسير الحرفي للخبز.

د- اختلف القديس غريغوريوس أسقف نيصص عن العلامة أوريجانوس والقديس كيرلس الأورشليمي في تفسيره الطلبتين الخامسة والسادسة بإدخاله الخطية الأصلية في التفسير.

لم يشر إليها القديس كيرلس نهائيًا، أما أوريجانوس فقدم تلميحات عنها مع أنه تحدث عن الخطية الأصلية في مواضع كثيرة(١١).

يرى القديس غريغوريوس أننا إذ نردد الطلبة الخامسة للصلاة الربانية نعترف أننا لا نزال نخطيء. هذه الخطايا لها جانبان: الأول أننا نشترك مع آدم في خطيته التي ورثناها بالطبيعة البشرية. هذا يكفي للإنسان كي يمنعه من أن يظن في نفسه أنه بلا خطية. الجانب الثاني أن ضميرنا يشهد بأننا نرتكب خطايا فعلية.

يؤكد القديس أنه لا يوجد أحد قط يمكنه أن يفتخر أنه بلا خطية، لهذا لا يستغني أحد عن الطلبة الخامسة.

يركز القديس على العلاقة المتبادلة بين المغفرة الإلهية والمغفرة الإنسانية. فإن كنا نريد غفرانًا إلهيًا يلزمنا أن نغفر نحن للآخرين. إن كنا نود أن نقترب من اللّه بطلبة المغفرة وجب علينا أولاً أن نتشبه به، خاصة بترك كل عنف وقسوة تجاه أقربائنا.

اتفق مع أوريجانوس والقديس كيرلس في إبراز أن اللّه يظهر كشريك في اتفاقية أو ميثاق، نغفر فيغفر لنا. غير أن أوريجانوس والقديس كيرلس لم يفقدا نظرتهما للحقيقة أننا مدينون لصلاح اللّه في كل شيء. لعل القديس غريغوريوس قد بالغ بقوله إن المغفرة الإلهية هي إلزام أمام غفراننا لإخوتنا، وإن كانت الأخطاء التي يغفرها اللّه أعظم مما نغفره نحن للآخرين.

بالنسبة للآباء الثلاثة غفران خطايا الإخوة وإظهار المحبة للقريب هما هدف الطلبة الخامسة، غير أن القديس غريغوريوس لم يكتف بهذا بل أضاف فكرة جديدة: إيضاح تأله الإنسان، فاللّه وحده من حقه أن يغفر الخطايا، **بالغفران للآخرين يصير الإنسان بطريقة ما متشبهًا باللّه، وتتأله طبيعته. بهذا يبلغ الإنسان إلى قمة الفضيلة، ويصعد إلى كمال أعظم مما للملائكة.**

هـ- في الطلبة السادسة يفسر "التجربة" بطريقة يرفضها العلامة أوريجانوس والقديس كيرلس الكبير.

يرفض العلامة أوريجانوس التفسير الحرفي للتجربة، متطلعًا إلى أن حياتنا كلها هي مجموعة من تجارب ضرورية حسب طبيعتنا الجسدية، فالتجارب لن تتوقف. لهذا يفسر الطلبة في الصلاة بمعنى الحفظ من الرضوخ للتجارب.

سار القديس كيرلس إلى أبعد من ذلك مفسرًا الطلبة أنها صلاة لكي يحفظنا اللّه من السقوط الذي بلا شفاء.

بالنسبة للقديس غريغوريوس التجارب هي هجمات الشرير الذي يود أن يقتنص نفوسنا ويطغى علينا بإغراءات العالم... بنظرته الرهبانية يرى أن الخلاص من التجارب يتحقق بالهروب من العالم، فيكون كمن يهرب من الغرق في البحر، أو الاحتراق بالنار أو القتل في الحرب. فقد وُضع العالم في الشرير، لذا تبطل التجارب بالهروب من العالم.

و- كمفسر رمزي روحي يركز في تفسيره على **معرفة اللّه ورؤيته.**

إنه عمل النعمة الإلهية أن تتحقق رؤية اللّه في حياة الإنسان المسيحي، فتنظره النفس كما في مرآة. متى صارت حياة المؤمن طاهرة، تحمل الصورة الأصلية التي خُلق عليها، والتي اظلمت بالخطية، تشرق في بهاء جديد بالتأمل في هذه الصورة في داخلنا.

٩- عظات على التطويبات De Beatitudinibus

تقترب فى طابعها السلوكى الرمزى من العظات على الصلاة الربانية.

الموضوع المحبب إليه جدًا هو "رؤية اللّه"، الذى لم يعالجه بقوة مثلما ظهر فى العظة السادسة للتطويبات.

١- النفس فى نظره أشبه بمرآة معدنية **أصابها الصدأ بسبب الخطية، بنزعه يتمتع برؤية اللّه.**

٢- الرؤية فى نظره ليست معرفة عقلانية أو مجرد تأمل بل هى **ملكية متبادلة**، نقتنى اللّه ونهبه نفوسنا ملكًا له، يُعبر عن ذلك بكلمات نشيد الأناشيد: "حبيبى لى وأنا لحبيبى". هذا يعنى تفريغ القلب تمامًا لكى لا يبقى فيه غير اللّه وحده، وذلك بتثبيت أنظارنا الداخلية على ما هو ليس مادى بل روحى، لنحمل الصورة النقية للجمال الإلهى.

لقد عبر القديس بولس عن نفس الفكرة بقوله: "المسيح حياتى". هذا يعنى التخلى عن كل ما يشين النفس لكى تمتلىء باللّه كلىّ النقاوة، الخالد، النور والحق(١٢).

٣- من عباراته الجميلة:

[إن رأى إنسان **نفسه** إنما يرى فيها من يشتهيه (اللّه المحبوب لديه)] العظة السادسة.

٤- يتحقق الوعد برؤية اللّه بالاتحاد القوى معه، الذى هو ثمرة الحياة الطاهرة. يعلمنا الإنجيل كيف نبلغ هذه الطهارة بحفظ الوصايا وممارسة النسك.

٥- يؤكد أن "رؤية اللّه" هى هبة إلهية تُعطى خلال مراحم اللّه لمن يُظهر رحمة لأخيه.

ينتقده بعض الدارسين لأنه لا يركز على النعمة الإلهية التى تهبنا الرحمة على الإخوة.

لكن يُرد على ذلك أن آباء الشرق قد ركزوا أحيانًا على الجهاد والمثابرة فى الطاعة للوصية الإلهية ليس تجاهلاً للنعمة الإلهية وإنما للأسباب التالية:

أ- لم يُثر فى الشرق موضوع الجهاد والنعمة، ولم يحدث نزاع كما حدث فى الغرب بسبب بيلاجيوس وأتباعه الذين تجاهلوا عمل النعمة، أو نادوا بالنعمة كمقابل للجهاد الإنسانى البحت.

ب- جاء الحديث عن الجهاد والطاعة ملازمًا للحديث الرمزى الروحى فى تفسير الكتاب المقدس.

غاية الطاعة لا التمتع بسلوكيات معينة، وإنما التعرف على أسرار كلمة الله. فالشرق بما اتسم به من نسكيات وعُرف بالجهاد الذى يميل إلى تأكيد النعمة الإلهية لا كثمن للجهاد وإنما كعطية للنفس التى يلزمها أن تتجاوب مع النعمة بالطاعة، فتدخل مع العريس السماوى فى حجاله خلال إدراكها للكلمة الإلهية.

١٠- عظتان عن كورنثوس الأولى

العظة الأولى عن ١ كورنثوس ٦:١٨، وُضعت بين مقالات القديس غريغوريوس تحت عنوان "مقال ضد الزنا *Oratio Contra Fornicarios*".

العظة الثانية عن ١ كو ١٥:٢٨ تبرهن على لاهوت الابن معتمدة على كلمات القديس بولس.

---

1. Quasten: Patrology, vol. 3, P. 263.
2. Hexaemeron 9.
3. The Classics of Western Spirituality: Gregory of Nyssa, The life of Moses, N. Y., 1978, P 11.
4. Against Eunomius 2. PG 45:1017D.
5. In Cant. 11. PG 44:1000 C.
6. In Cant. 12. PG 44:1025 A-D.
7. Hom 1. PG 44:772.
8. Sermon1.
9. ACS, P.8.
10. 27:1.
11. Contra Celsus 3:62,66.
12. In Cont. Ser. 15.



ثالثًا كتاباته النسكية

Ascetic Writings

وُجدت معظم التعاليم الروحية للقديس غريغوريوس أسقف نيصص فى كتاباته النسكية، بسببها دُعى "أب التأمل الباطن Father of mysticism"(١).

إن كان أخوه باسيليوس قد صار مشرعًا للرهبنة فى المنطقة المحيطة به، ولعبت أخته ماكرينا دورًا هامًا فى تطور المجتمعات النسائية (البتولية)، فقد أمدّ غريغوريوس مجهودهما بالروحانية.

لقد أعطى القديس باسيليوس نكهة كتابية خاصة فربط الرهبنة بالكتاب المقدس، وتبعه أخوه القديس غريغوريوس لكن خلال لمسات التأمل الروحى والتفسير الرمزى، فصبغ الرهبنة بفكر تقوى رمزى mystical piety(٢).

قام معهد هارفرد للدراسات الكلاسكية بدراسات نقديةً لكتاباته النسكية اعتمدت على أكثر من ١٠٠٠ مخطوط.

أهم كتاباته النسكية هى(٣):

١- البتولية De Virginitate

كتبه بعد اختياره أسقفًا سنة ٣٧٠م مباشرة، وقبل تكريسه كأسقف على نيصص عام ٣٧١م.

أ- أشار فى مقدمة هذا العمل إلى أخيه باسيليوس: "إلى ذاك الأسقف الكلى التقوى أبينا فى"اللّه" وأشار إلى "أنظمته" الرهبانية. لقد أعلن أن باسيليوس " وحده يمكن أن يكون سيدًا مثاليًا لهذه التعليمات"، ولهذا أعلن أنه يقدمه كناسك مثالى، وإن كان لم يشر إليه بالاسم، لكن توجد دلائل تكشف أنه كان يتحدث عنه، وقد حقق غريغوريوس وعده هذا فى الفصل ٢٣ حيث يُظهر القديس باسيليوس نموذجًا للنساك ومعلمًا لهم.

ب- ارتبطت البتولية فى ذهنه بالحياة المقدسة، لا بمعنى أن كل بتول هو قديس، ولا كل قديس يجب أن يكون بتولاً حسب الجسد، إنما البتولية تسند الإنسان لممارسة بتولية النفس والقلب والذهن والحواس والرغبات، ينعم بها المؤمنون بالروح القدس واهب الشركة مع اللّه، مقدس نفوسنا وأرواحنا وأجسادنا(٤).

يقول القديس غريغوريوس:

[البتولية هى باب ضرورى لحياة القداسة...

هى القناة التى تجتنب اللاهوت للشركة مع الإنسان.

إنها تقدم جناحين يسندان رغبة الإنسان فى الانطلاق نحو السمويات.

هى رباط الوحدة بين ما هو إلهى وما هو بشرى، بواسطتها يتم التوافق بعد حدوث هوّة عظيمة بينهما...]

[لقد تبرهن أن اتحاد النفس مع اللاهوت غير الفاسد لا يمكن أن يتحقق بطريق آخر مثل دخول الإنسان فى هذه النقاوة العظمى. بهذا **يتشبه الإنسان باللّه لينال البتولية العاكسة لنقاوة اللّه كما فى مرآة، فتمتزج صورته بالجمال خلال تلاقيه بالجمال الأمثل وتأمله فيه(٥)...]**

جـ- يقدم الطوباوية مريم مثالاً رائعًا للبتولية، ففى نظره كل نفس بتول تتمتع بنوع من الأمومة للسيد المسيح، متأثرًا بذلك **بالعلامة أوريجانوس** القائل: [كما يتشكل الطفل فى الرحم، هكذا يبدو أن كلمة اللّه يتشكل فى القلب (النفس) التى تقبلت نعمة المعمودية لتدرك فى داخلها كلمة الإيمان الأكثر مجدًا وأكثر وضوحًا.]، [يبدو أنه من الخطأ أن نتحدث عن تجسد ابن اللّه من القديسة العذراء ولا نشير إلى تجسده أيضًا فى الكنيسة... إذ يليق بكل واحدٍ منا أن يعرف مجىء ابن اللّه فى الجسد بواسطة العذراء الطاهرة، وفى نفس الوقت أن يدرك مجيئه بالروح فى كل واحد منا(٦).]

يقول القديس غريغوريوس:

[ما حدث لمريم التى بلا عيب حين أشرق فيها كمال اللاهوت الذى فى المسيح يتحقق فى كل نفس تمارس البتولية كمنهج لها. حقًا لا يعود يأتى السيد

ليحل حلولاً جسديًا: "فإننا لسنا نعرفه بعد حسب الجسد" ٢ كو ٦:٥، إنما يسكن فينا روحيًا ويُحضر معه أباه كما أخبرنا فى الإنجيل فى موضع آخر.]

[جاء هذا الميلاد من اللّه، وهو يتحقق فى كل وقت فيه يحبل بخلود النفس فى قلب الإنسان الحىّ، فيعطى ميلادًا للحكمة والعدل والقداسة والنقاوة الكاملة.

بهذا يستطيع كل مسيحى أن يصير أمًا لذاك الذى هو جوهريًا كل شىء، إذ يقول ربنا نفسه: "من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات فهذا هو أمى" مر ٣:٢٥؛ مت ١٢:٥٠(٧)]

د- يمجد البتولية، فيدعو السيد المسيح "**رئيس البتوليين** (أرشى بارثينوس)".

هـ- البتولية فى الواقع هى إعداد لرؤية اللّه: "البتولية الحقة، الغيرة الحقيقية للطهارة تنتهى إلى هدف واحد لا غير هو هذا: **القوة التى بها يُرى اللّه**"[١١].

و- أكد أن البتولية هى عطية إلهية تمنحها النعمة وليست ثمرة جهاد بشرى بحت: "إنها تنتمى إلى أولئك الذين وحدهم يجاهدون ليقتنوا هذا الهدف للحب النبيل الذى يُمنح ويُعان بنعمة اللّه"[١].

ز- شعر القديس غريغوريوس بالأسف لأنه بزواجه حُرم من حالة البتولية[٣].

ح- قارن فى الفصل ٢٠ بين البتولية والزواج، نشير إلى ذلك عند حديثنا عن منهجه وأفكاره.

أخيرًا يرى J.P. Cavarnos الذى قدم طبعة حديثة لهذا العمل، أن القديس استمر يضيف إلى مقاله أفكارًا جديدة حتى بعد نشرها، وهذا هو السبب فى وجود بعض اختلافات طفيفة بين المخطوطات.

٢- ما هو الاسم المسيحى وعمله؟

Quid nomen professiove christianorum sid' velit

جاء هذا المقال فى شكل رسالة موجهة إلى شخص يدعى هارمونيوس Harmonius الذى سبق فأرسل للقديس عدة رسائل.

كتب هذا المقال فى أواخر أيامه.

حدد عمل المسيحي **"تمثُلٌ بالطبيعة الإلهية"**. وقد رد على هارمونيوس المعترض على ذلك والقائل بان هذا المستوى أعلى من انحطاط طبيعتنا. وقد عالج القديس أحد التعاليم الأساسية التي تمس اللاهوت الروحي، أعني : "الإنسان صورة اللّه".

[إليته لا يسيء أحد تقديم التعريف حاسبًا إياه أمرًا فوق انحطاط طبيعتنا، فانه لا يتعداها. إن راعى أحد حال الإنسان الأول يجد في الكتب المقدسة أن هذا التعريف لا يتعدى حدود طبيعتنا. هكذا كان حال الإنسان: على شبه اللّه ومثاله. لقد أوضح موسى ذلك بقوله: "خلق اللّه الإنسان، على صورة اللّه خلقه" تك ١:٢٧.

إذن عمل المسيحية هو إصلاح الإنسان وعودته إلى أصله القديم وثراته.

إن كان الإنسان منذ البداية على مثال اللّه، فإننا لا نكون قد بالغنا في تعريف المسيحية انها تمثل بالطبيعة الإلهية(٨)".

٣- عن الكمال

De perfectione et qualen oporteat esse christianun

وُجه هذا المقال إلى الراهب أولمبيوس الذي طلب مشورة لبلوغ الكمال "بالحياة حسب الفضيلة".

أ- اعتمد المقال أساسًا على نصوص مسيانية للقديس بولس، الذي يحسبه القديس غريغوريوس المرشد الأمين للمسيحي كي يتمثّل بالسيد المسيح.

ب- يتطلع إلى التقديس من جهة حرية الإرادة ومن جهة السيد المسيح بكونه قوة اللّه وحكمته، سلام النفس، النور الحقيقي، الخلاص، فهمنا ورئيس كهنتنا الأعظم، الشفيع الكفاري، الطعام والشراب الروحيين، الصخرة، أساس الإيمان وحجر الزاوية، صورة اللّه غير المنظورة، رأس جسد الكنيسة، رأس الخليقة، بكر الراقدين، البكر بين إخوة كثيرين، رب المجد، ملك العدل والسلام الخ. وقد ناقش كل هذه الألقاب.

جـ- عالج القديس غريغوريوس موضوع الكمال هنا بأكثر توسع عما جاء في رسالته إلى هارمونيوس السابق الإشارة إليها.

د- بلغ القديس النتيجة التالية:

"لن يقف الكمال الحقيقى عند حد معين، بل هو دائم النمو نحو الأفضل. ليس للكمال حدودًا!!(٩)".

٤- النظم المسيحية De instituto christiano

كان يُنظر لهذا العمل إنه ليس أصيلاً؛ وإنما هو جزء ثان للرسالة العظيمة المنسوبة لمقاريوس Great Letter of the so-called Macarius. لكن وُجد حل لمشكلة الرسالة المنسوبة خطأ للقديس مقاريوس، وظهر إصالة نسبة مقال "النظم المسيحية" للقديس غريغوريوس.

لهذا المقال أهميته القصوى، يبدو أنه تقريره النهائى عن طبيعة النسك. يرى البعض أنه كتبه فى السنوات الأخيرة من حياته، بعد سنة ٣٩٠م، مقتبسًا بتوسع من كتاباته السابقة مثل "عن البتولية" و"عن حياة موسى" التى كتبها منذ حوالى ربع قرن.

لقد قدم بنفسه مختصرًا للخطوط العريضة للعمل(١٠)، مشيرًا إلى المناسبة التى دفعته إلى الكتابة! فقد طلب منه بعض الرهبان الآتى:

أ- ملخصًا لتعاليمه بخصوص الحياة التأملية ووسائط بلوغها.

ب- نصيحة تقدم للقادة فى المجتمعات الرهبانية.

جـ- نصائح عن الممارسات التى تهيئ النفوس لقبول الروح القدس.

٥- ضد الذين يغضبون بشدة بسبب نصائح معلميهم
Adversus eos Qui castigationes aegre ferunt

وجهها إلى بعض أعضاء القطيع الذين غضبوا جدًا بسبب شدة نصائح معلمهم وانسحبوا من الكنيسة.

٦ - حياة ماكرينا Vita Macrinae

قدم لنا نموذجًا حيًا للحياة المسيحية: أخته الكبرى القديسة ماكرينا The life of Macrina.

قررت أخته أن تمارس حياة البتولية بعد موت خطيبها، فعاشت في نسك شديد تتمتع بالحياة التأملية. وكان لها أثرها العظيم على أخويها المشهورين القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس أسقف نيصص.

سجل لنا القديس سيرتها بعد نياحتها (سنة ٣٨٠م) بوقتٍ ليس طويل.

لعل من أجمل ما قدمته لأخيها قبيل نياحتها هو الحياة المتهللة كسمة الإنسان الروحي. فيروى لنا القديس كيف كانت تخفى تنهداتها وكل ما تعانيه من ضيق في التنفس لتبرز الجانب المضيء المفرح. وكانت تتحدث معه وتجيب على اسئلته. وفى حديثهما معًا تذكرا أخاهما باسيليوس الكبير، فتأثر القديس غريغوريوس جدًا وانسابت دموعه وهو متألم وكاد ينهار، أما هى فلم تشعر بانهيار أمام حزنه بل حولت الحديث عن أخيهما إلى الحديث عن الحكمة السماوية... رفعت قلب أخيها من الذكريات إلى الالتهاب بالحياة العلوية. وكما قال:

[لقد بدت نفسى وكأنها قد ارتفعت تمامًا من جوها البشرى بما قالت وتحت تأثير حديثها، ووقفت فى المقادس السماوية.]

1- Quasten: Patrology, vol. 3, P.269.
2- Cf. Compenhausen, P.116.
3- Quasten: 269-276.
٤- المؤلف: القديسة مريم فى المفهوم الأرثوذكسى، ١٩٧٨، ص١٤.
5- De Virginitate 2,11.
6- Hom. On Exod. 10:4, De Sargiusga 8:2.
7- De Virginitate 2,13.. PG 46:324, 380.
8- PG 46:244 C/D.
9- PG 46:251-286.
10- 41:10-24.



رابعًا عظاته وخُطبه

Sermons and Orations

بجانب العظات السابق الحديث عنها توجد مجموعة من العظات والخطب، التى وان كانت ليست كثيرة لكنها تحمل تنوعًا عظيمًا فى مواضيع مختلفة تكشف اكثر من بقية كتاباته عن شغفه بالبلاغة(١):

١- عظات ليتورجية

أغلبها مخصص لمناسبات مقدسة خاصة بالسنة الكنسية، منها:

أ- عن عماد المسيح أو عظة على يوم الأنوار (عيد الغطاس)

In diem Luminum sive in baptismum christi

يقوم منهج القديس غريغوريوس على ما يدعوه البعض بالتألـه، أو تجديد الإنسان الداخلى ليتشكل على صورة المسيح القدوس ومثاله. هذا هو غاية التجسد الإلهى، وعمل الروح القدس، وغاية كل عمل كنسى وجهاد شخصى بعمل النعمة الإلهية.

أولا: فى صراع القديس غريغوريوس مع أنوميوس أكد دور الروح القدس فى تجديد الطبيعة البشرية ونموها، خاصة خلال سرّىْ العماد والأفخارستيا، فقد قلل أونوميوس من شأن الأسرار.

[لا تحتقر الجرن الإلهى، ولا تستهن به فى فكرك، كأمر عام، وذلك بسبب استخدام الماء. لأن القوة العاملة فيه قديرة، والأمور التى تحدث فيه عجيبة.

فان هذا المذبح المقدس أيضًا الذى أقف أمامه هو حجر عادى فى طبيعته، لا يختلف عن أى ألواح حجرية تُبنى بها بيوتنا وتُزين بها ممراتنا. لكن إذ تقدست (الحجارة) لخدمة الله وتقبلت البركة، صارت مائدة مقدسة، مذبح غير دنس، لا تلمسه غير أيادى الكهنة وبكل وقار.

أيضًا الخبز، ففي البداية يشترك مع كل خبز، لكن بالعمل السرائرى يتقدس فيُدعى جسد المسيح، وهكذا يصير.

هكذا بالنسبة للزيت السرائرى، والخمر، فمع أنهما قبل التبريك قليلا القيمة، **لكن بعد التقديس الذى يحققه الروح يصير لكل منهما عمله العظيم(٢).]**

يتحدث في مقاله عن **"صعود المسيح"** عن الأفخارستيا فيدعوها **"مائدة الروح(٣)".**

فالروح القدس هو الذى يحول المادة المنظورة العادية بقوته المقدسة لننال الميلاد الجديد الروحى فى المعمودية، ونتناول جسد الرب ودمه فى الأفخارستيا الخ... انه **[افتقاد الروح الذى يحل سرائريًا ليحررنا(٤).]**

ثانيًا: يؤكد القديس غريغوريوس أسقف نيصص أن الروح القدس يستخدم العنصر المادى ليهب ما هو روحى وفوق المادة.

[الماء – المادة المحسوسة – لأجل جسد (الإنسان) المنظور؛ أما بالنسبة للنفس التى لا يمكننا رؤيتها، فالروح الغير منظور المُستدعى بالإيمان يكون حاضرًا بطريقة لا يُنطق بها.]

ثالثًا: يوضح القديس غريغوريوس أن العماد يتطلب ثلاثة أمور ضرورية غير منفصلة حتى يتحقق ميلاد المؤمن روحيًا:

* الماء.
* الإيمان.
* العنصر الأهم وهو تدخل الروح القدس.

رابعًا: تتم المعمودية باسم الثالوث القدوس، فإن الثالوث يعمل معًا فى الأسرار المقدسة.

[لماذا باسم الآب؟ لأنه هو العلة لكل شيء.

لماذا باسم الابن؟ لأنه هو صانع الخليقة.

لماذا باسم الروح القدس؟ لأنه هو القوة الذى يكمل الكل.

إننا ننحنى أمام الآب لكى نتقدس،

وأمام الابن ليحقق نفس الشيء،

وأمام الروح القدس لنصير ما هو عليه من جهة الحقيقة والاسم. (نصير قديسين).

لا يوجد تمييز فى التقديس بمعنى أن الآب يُقدس أكثر، والابن أقل، والروح القدس بدرجة أقل من الإثنين(٥).]

مادمنا نتحدث عن الأسرار، يليق بنا أن نذكر بأن القديس غريغوريوس تحدث فى مقاله عن الروح القدس عن مسحة الميرون كأمر أساسى فى حياة المسيحى.

ب- عن الفصح المقدس وفى القيامة

In Sanetum Pascha et in resurrectionem

أُلقيت هذه العظة فى عيد الفصح (القيامة) سنة ٢٧٩م. لها علاقة بمقال "عن خلقة الإنسان" التى وضعها قبلها بأشهر قليلة.

جـ- عن الفصح المقدس فى قيامة المسيح

In Sanctum Pascha sive in Chresti resurrectionem.

يبدو أن العظات ١،٣،٤ من العظات الخمس الواردة هى العظات الأصيلة. العظة الأولى أُلقيت فى عيد القيامة عام ٣٨٢م. العظة التالية جاءت "**فى صعود المسيح** In ascensionem Christi" أُلقيت فى ١٨ مايو سنة ٣٨٨م. وهى تمثل أول شهادة موثوق بها عن عيد الصعود منفصلاً عن عيد العنصرة (البنطقستى). فى نفس الشهر والسنة (٢٨ مايو ٣٨٨) قدم عظة "**عن الروح القدس فى البنطقستى**" .De Spiritn Sancto sve in Pentecosten

عظة ميلاد السيد المسيح "**عن ميلاد المسيح**" In natalen christi أهمية كبرى فى تاريخ عيد الميلاد.

٢- مديح للشهداء والقديسين Panegyrics on Martyrs and Saints.

أ- له "عظتان عن القديس اسطفانوس"، الأولى تحمل دفاعًا عن لاهوت الروح القدس، ردًا على القائلين بان الشهيد لحظة استشهاده لا يرى سوى أقنومين. كما قدمت دفاعًا عن لاهوت الابن ضد التفسير الأريوسى للكلمات: "قائمًا عن يمين الله" أع ٧:٥٦.

أُلقيت هذه العظة فى ٢٦ ديسمبر سنة ٣٨٦، والثانية فى اليوم التالى.

ب- "مديح فى غريغوريوس اللاهوتى" عبارة عن مقال طويل يصف ما بلغه القديس من تقدم عظيم فى العالم المقدس والفلسفة والخطابة، ويقارنه بموسى النبى.

جـ- "مديح فى الشهيد ثيؤدور" ألقاه فى سنة ٣٨١م فى Euchaita، فى موضوع استشهاده.

د- ثلاث "عظات على الأربعين شهيدًا" ، العظة الأولى أُلقيت فى قيصرية فى ٣٧٩م، تروى قصة آلامهم، والعظتان الثانية والثالثة فى سبسطية موقع استشهادهم، فى الكنيسة التى باسمهم، فى ٣٨٣م.

٣- عظات جنائزية Funeral Orations

له ثلاث عظات جنائزية أُلقيت فى القسطنطينية، دُعى لإلقائهما بسبب شهرته كمتكلم، وهى تقدم تعزية مسيحية.

العظة الأولى أُلقيت فى نياحة **الأسقف ميليتوس أسقف أنطاكية** فى مايو ٣٨١، أثناء اشتراكه فى المجمع المسكونى الثانى بالقسطنطينية.

والثانية فى موت الأميرة بلخاريا، الابنة الوحيدة للامبراطور ثيؤدوسيوس الكبير، ماتت عام ٣٨٥، وكان عمرها ٦ سنوات.

والأخيرة أُلقيت فى ١٥ سبتمبر عام٣٨٥، فى وفاة الامبراطورة Flaccilla، زوجة ثيؤدوسيوس التى انتقلت بعد موت ابنتها بقليل.

٤- عظات أخلاقية

أ- إثنتان من هذه العظات ُدعيتا:

De Pauperibus amandis et Benignitate complectendis

الأولى أُلقيت فى مارس ٣٨٢، والثانية فى مارس ٣٨٤.

ب- مقال "**ضد المرابين** Contra usuarios"، أشار فيه أن القديس باسيليوس تحدث فى هذا الموضوع وأدان فيه الربا بكونه كسرًا لكل قوانين المحبة. يبدو أنها أُلقيت فى مارس ٣٧٩.

جـ- ضد الذين ُيرجئون العماد

Agversus eos qui differunt baptismum.

أُلقيت فى قيصرية فى ٧ يناير ٣٨١م

جاء فى مقاله ضد الذين يُرجئون العماد

Against Those Who Defer Baptism.

[اسمحوا للحمامة أن تطير إليكم، هذه التى أحضرها يسوع لأول مرة فى شكل رمز من السماء.

هذه الحمامة بلا عيب، وديعة، ومُخصبة جدًا.

عندما تجد إنسانًا يتطهر، تسكن فيه كخشبة متقدة معدة حسنًا، فتلهب نفسه بالنار.

إنها على مثال طير يحتضن بيضه حتى يفقس. تنجب الحمامة صغارًا كثيرين. هؤلاء الصغار هم: الأعمال الصالحة والكلمات المقدسة، والإيمان، والتقوى، والبر، واللطف والعفة، والطهارة. هؤلاء هم أبناء الروح، لكنهم ملكنا(٦).]

د- عن أسلوب المسيحى للحياة

On The Christian Mode of Life.

يقدم لنا هذا المقال مفهومًا حيًا للعماد بكونه ليس عملاً جامدًا، لكنه عمل ديناميكى حىّ مستمر فى الحياة المسيحية.

العماد هو تمتع بعمل الروح الذى يبقى عاملاً فى حياة المؤمن لكى ينمو ويكمل. هو انفتاح الباب للحياة "فى الروح"، حيث تفيض نعمة الروح لمن يقبلها ويتجاوب معها، فينطلق المؤمن من قوة إلى قوة، فى ثمر روحى متكاثر.

أ- [تطهر قوة الروح أولئك الذين يقتربون من الروح بنية غير معيبة، بإيمان كامل، بغير دنسٍ فى ضمائرهم. وكما قيل: "إن إنجيلنا لم يصر لكم بالكلام فقط بل بالقوة أيضًا وبالروح القدس وبيقين شديد كما تعرفون" ١ تس ١:٥. مرة أخرى قيل : "لتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجئ ربنا يسوع المسيح" ١ تس ٥:٢٣.

من ينتعش بعربون الخلود خلال العماد باستحقاق تنتج الوزنة التى أُتمن عليها والتى استخدمها غنى غير منظور.

يا إخوة، العماد ضرورى، ضرورى من أجل الروح الغنى المحب الذى يفيض دومًا فى الذين يقبلون النعمة، ويمتلئون مما حصده الرسل القديسون محصولاً كاملاً لكنائس المسيح(٧).]

الإنسان الذى يغتسل (بالتوبة المستمرة) يأتى إليه الروح القدس ويسكن فيه، **ويلهب نفسه بالنار**(٨). فيتحول المؤمن بالتوبة إلى لهيب نار روحى يزداد التهابًا بغير توقف.

كثيرًا ما يتحدث القديس عن الانتعاش بالروح القدس والتمتع بنعمته التى تتزايد فينا لتهبنا نموًا **مستمرًا حتى نبلغ النضوج الروحى الكامل، فننطلق من مرحلة الطفولة الروحية العاجزة إلى النضوج القوى العامل.**

بمعنى آخر إن كنا فى العماد ننال الميلاد الجديد فيلزمنا ألا نقف عند حالة ولادتنا كأطفال بل نتقوَّت بالروح على الدوام لكى ننمو وننضج.

[من يقبل ُعملة (وزنة) يقبلها على أساس الفائدة. هكذا بالنسبة لنعمة الروح القدس، فإنه تُعطى لكل أحد بمفهوم أن يتحقق نمو وتزايد فيما يناله.

إنه لضرورى للنفس التى تولد ثانية بقوة اللّه، أن تتقوَّت بالروح بما يناسبها... وأن تنتعش بماء الفضيلة وفيض النعمة.

كما لا تستمر طبيعة الطفل المولود حديثًا فى زمن الفطامة، إنما يتقوَّت بالطعام حسب قانون الطبيعة فيأخذ فى حدود ما يناسبه مما يُعطى له، هكذا يليق بالنفس المولودة حديثًا التى بشركتها فى الروح تعود إلى طبيعتها، إلى جمالها السابق بعد تحطيم المرض الذى حلّ بها بسبب العصيان، ألا تبقى كطفلٍ خاملٍ عاطلٍ، ولا تكون نائمة وساكنة كما فى حالة ولادتها. إنما يلزمها أن تتقوت بطعامها بما يناسب متطلبات طبيعتها، وان تنتعش نفسها بكل فضيلة وجهاد، فتتقوى بقوة الروح بفضيلتها لتقاوم اللص غير المنظور الذى يهاجمها برذائل كثيرة. **إنه من الضرورى أن نُحضر أنفسنا إلى الرجولة الكاملة**(٩).]

يشير القديس غريغوريوس بعد ذلك إلى الذين يتمسكون بقوة بختم الروح خلال العماد، فيكون لهم شوق القديس بولس ان يبلغوا إلى زمن التعقل أو النضوج، وأن ينموا بمعونة الروح. فالرسول يشتاق أن ينال أهل أفسس روح

الحكمة والإعلان فى معرفة المسيح العميقة لكى يعرفوا غنى ميراثه فى القديسين وعظمة قوته المتزايدة نحو الذين يؤمنون (أف ١:١٥-١٩). الروح الذى أقام يسوع من الأموات بقوة قدرته يقيم من ينعم بالشركة معه. بهذا يعالج القديس غريغوريوس موضوع نمو الإنسان الداخلى بقوة الروح : "كى تقدروا أن تدركوا مع كل القديسين ما هو العرض والطول والارتفاع والعمق، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكى تمتلئوا بكل كمال ملء اللّه" أف ٣:١٣-١٩ (١٠).

ب- يتحدث بعد ذلك عن مواهب الروح وحياة النمو، فبعدما اقتبس كلمات الرسول بولس عن المحبة (١ كو ١:١٣-٨)، علّق عليها قائلاً:

[حتى إن نال أحد المواهب الأخرى التى يُنعشنا بها الروح- أقصد التكلم بألسنة الملائكة والنبوة والعلم ونعمة الشفاء - ولم يتطهر تمامًا من متاعب الأهواء التى فى داخله بمحبة الروح، ولم يتقبل العلاج النهائى للخلاص يكون فى خطر السقوط، ما لم يحفظ المحبة بثبات وحزم بين فضائله. فإن اقتناءه عطايا (الروح) بسبب نعمة الروح الغنية والمحبة لا يعنى أنه لا يحتاج بعد إلى الكمال.

عندما يحل بك هذا الغنى اتضع فى الفكر، وكن أيضًا خاضعًا، وفكّرْ فى الحب كأساس لكنز النعمة بالنسبة للنفس...

"الخليقة الجديدة" هى القانون الرسولى...(١١)]

جـ- أوضح القديس بالنسبة للسالكين فى الحياة النسكية أنه **لا نفع للصوم ولا للصلاة ولا للسهر إن غابت نعمة الروح القدس(١٢).**

د- يوضح القديس أنه يلزم الجهاد بقوة الروح محتملين كل ضيق بفرح:

[ليكن قانونكم هو هذا: انكم توشكون أن تصعدوا إلى أعالى القوة والمجد بتعاونكم مع الروح.

احتملوا كا ألم وضيق بفرح، ناظرين أن تظهروا مُستحقين لسكنى الروح فيكم، ومتأهلين لميراث المسيح(١٣).]

٥- عظات عقيدية

أ- لعل أهم عظاته العقيدية تلك الخاصة بلاهوت الابن والروح القدس Oratio de deitate Filii et spiritus Sancti.

فى هذه العظة يقارن القديس بين هراطقة عصره والرواقيين والأبيقوريين فى أيام القديس بولس، مفنّدًا آراءهم بخصوص الثالوث القدوس، ومدافعًا عن لاهوت الابن والروح القدس، مادحًا إيمان إبراهيم.

أُلقيت هذه العظة فى مجمع القسطنطينية فى مايو ٣٨١. وقد اقتبس الآباء من بعده الكثير منها.

ب- عظة أخرى بخصوص لاهوت الروح القدس، دُعيت In Suam Ordinationem يرى O. Bardenhewer أنها أُلقيت فى مجمع القسطنطينية عام ٣٩٤م. لو كان الأمر كذلك تكون هذه آخر عظة ألقاها. يرى آخرون أنها أُلقيت فى مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م.

1- Quasten: Patrol;ogy, vol. 3, P. 277-280.

2- On the Ascension of Christ, in W. Jeager, ed. Gregorii Nysenni Opera (Leiden, Brill, 1952), 9:324.

3- On the Baptism of Christ NP frs 5:519.

4- Ibid.

5- On the Baptism of Christ, NP Frs 5:519.

6- PG 49:42.

7- The Fathers of the Church, Washington D.C., 1967, vol. 58. On the Christian Mode of Life, P129.

8- PG 44:86617.

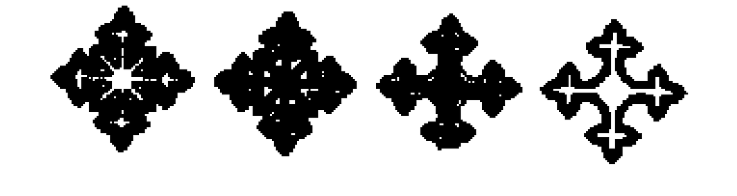
9- Fathers of the Church 58:129-130.

10- Ibid 58:139-140.

11- Ibid 58:141-2.

12- Ibid 58:155.

13- Ibid 58:157-158.



خامسًا: رسائله

Letters

جاء فى طبعة G. Pasquali الحديثة ٣٠ رسالة للقديس، تكشف عن اهتمامات القديس وعلاقاته مع الغير.

أ- بعض رسائله مثل ٩، ١١، ١٢، ٢٨ تحمل علاقات اجتماعية بحتة.

ب- بعضها تحمل شفاعة عن الشعب مثل الرسالتين ٧، ٨.

جـ- كثير من الرسائل تعالج مشاكل لاهوتية. فالرسالة ٥ تدافع باختصار عن الإيمان الثالوثى، ٢٤ توضح الجوهر الواحد، والثلاثة أقانيم فى اللاهوت. يرى Cavollin ان رسالة القديس باسيليوس ٣٨ التى قُرأت فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ هى رسالة أخيه القديس غريغوريوس، وهى توضح بشىء من التفصيل الفارق بين الجوهر والأقنوم.

رسالة ٤ تقدم سببًا رمزيًا للاحتفال بعيد الميلاد فى الشتاء.

د- الرسالتان ٢ (إلى الذين يذهبون إلى أورشليم كسوّاح) و٣ (إلى اوستاثيا Eustathia وأمبروسيا Ambrosia) كانتا موضع جدل حىّ بين الكاثوليك والبروتستانت فى القرنين ١٦ و١٧. فى الرسالة ٢ يستعرض أخطاء تحدث أثناء السياحة، والرسالة ٣ تخبرنا عن ظروف كنيسة سيئة فى فلسطين(١).

جاء فى حديثه عن السياحة إلى الأراضى المقدسة:

[الآن يوجد بعض من الذين دخلوا الحياة الرهبانية وسلكوا فى الوحدة يحسبون جزءًا من تقواهم أن يشاهدوا المناطق التى لها ذكريات خاصة بحياة ربنا وهو فى الجسد فى أورشليم...

عندما دُعى المطوبين ليرثوا ملكوت السموات، لم تُذكر السياحة إلى أورشليم بين أعمالهم الصالحة. وعندما نطق بالتطويبات لم يُشر إلى هذا النوع من التقوى بينها...

إن كان يوجد بعض النفع فيما يفعلون هكذا، مع هذا فإنه يليق بالكاملين أن يفعلوا ما هو أفضل: ألا يتوقوا إلى ممارسة هذا...

تغيير المكان ليس له تأثير ليجعلك مقربًا للّه، لكن أينما وُجدت يأتيك اللّه إن وُجدت حجرات نفسك من النوع الذى يمكن للّه أن يسكن فيها ويتحرك.

لكن إن احتفظت بإنسانك الداخلى مملوءًا بأفكار شريرة فإنك وان كنت على جبل الجلجثة، أو على جبل الزيتون، أو وقفت فى الصخرة التى فيها حدثت القيامة فستكون بعيدًا عن أن تتقبل المسيح داخلك بكونك إنسانًا لم تبدأ تعترف به.

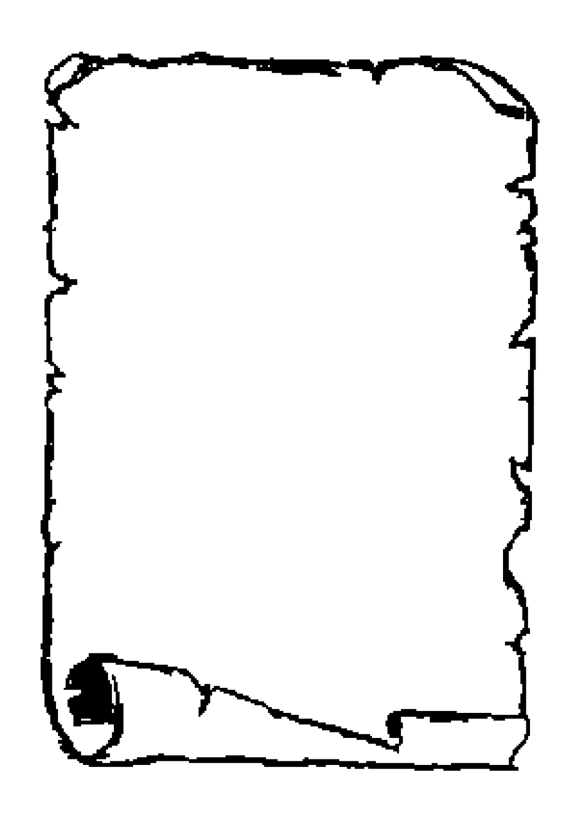
لهذا أنصح الإخوة يا صديقى المحبوب أن يكونوا متغربين عن الجسد ليذهبوا إلى الرب أكثر من أن تطلب منهم أن يتغربوا عن كبادوكية ليذهبوا إلى فلسطين(٢)...]

إنه لم ينكر أهمية هذه المواقع المقدسة بالنسبة للإنسان الروحى أو كما يقول "للقلب الحاوى للّه God Containing heart"، وللضمير الصالح، لكن لا تكون السياحة فى ذاتها هدفًا، خاصة وأن البعض أساء استخدامها(٣).

يبدوا أن الرسالتين ٢،٣ قد كُتبتا حوالى عام ٣٨٣م.

هـ- رسالة ٢٥ الموجهة إلى أمفيلوخيوس Amphiloehius of Iconium لها قيمتها الكبرى فى تاريخ المعمار المسيحى والفن.

1- Patrick J. Hamell: Handbook of Patrology, N.Y 1966, P. 107.
2- On Pilgrimages. N.P. Frs, SDeries 2, vol. 5, P. 382-383.
3- N.P. Frs., P. 542.



الباب الثالث

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

منهجه وأفكاره

الإيمان والفلسفة

إن قارنا القديس غريغوريوس أسقف نيصص كلاهوتى بالأبوين الكبادوكيين الآخرين القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزى ندرك فى الحال تفوقه عليهما. فقد قدم أول نظام منسق للإيمان المسيحى بعد العلامة أوريجانوس. عروضه التعليمية فاقت مناضليه المعاصرين له، وساهمت بالكثير فى تقدم علم اللاهوت(١).

١- الفلسفة

واضح أن القديس غريغوريوس قرأ كميات غير عادية من الكتب الفلسفية مثل كتب أفلاطون والفلاسفة الأفلاطونيين وفيلو الاسكندرى. كما أعجب بالخطيب ليبانيوس Libanus كشخصٍ سامٍ يمثل الثقافة اليونانية الكلاسيكية(٢).

لا يوجد بين آباء القرن الرابع من استخدم الفلسفة مثل هذا الأب، وذلك بقصد تقديم أسرار الإيمان وتقريبه إلى الفكر البشرى. لقد شبه الفلسفة بعروس نشيد الأناشيد، لأنها تعلمنا الاتجاه الذى نقبله نحو اللاهوت(٣).

فى نفس الوقت لم يتردد فى نقد الفلسفة الوثنية، حاسبًا إياها عقيمة بلا ثمر مثل ابنة فرعون (خر ٢:١-١٠).

مع هذا يجد إلزامًا أن تُستخدم الحكمة الوثنية بحذر وحيطة، كما استخدم اليهود كنوز المصريين عند خروجهم. هكذا يلزم تحرير الحكمة من عبودية الفلسفة الوثنية لتستخدم فى الحياة الفاضلة العليا(٤).

بهذا أظهر القديس نفسه تلميذًا للعلامة أوريجانوس، يسلك بمنهجه بكل ولاء.

أكد القديس أنه لا يمكن الاعتماد على الفلسفة بطريقة مطلقة بل يلزم أن يكون الكتاب المقدس هو الحكم.

[لا يُسمح لنا أن نُثبت ما نُسر به. **لنجعل الكتاب المقدس هو الحكم والمقياس لكل معتقد. إننا نقبل فقط ما يتناغم مع قصد هذه الكتابات**(٥).]

الكتاب المقدس بالنسبة له هو "قائد العقل(٦)"، "محك الحق(٧)"، فوق كل حكمة الوثنيين(٨). لذلك "كل ما هو نافع يحتضنه، وكل ما هو غير نافع يرفضه(٩)".

بهذه الكلمات يصف القديس غريغوريوس اتجاه القديس مار أفرام السرياني نحو الفلسفة الوثنية واتجاهه هو أيضًا نحوها.

استخدم القديس اللاهوت العقلي أكثر من الكبادوكيين الآخرين، فقد آمن بأنه لابد من استخدام العقل قدر المستطاع حتى بالنسبة لأعمق الأسرار الخاصة بالإعلان الإلهي. وفي نفس الوقت كان مرتبطًا جدًا بتقليد الآباء. إذ يقول: [**إن كان عقلنا غير قادر على مشكلة، يلزمنا أن نحفظ التقليد الثابت غير المتزعزع، الذي تسلمناه عن الآباء**(١٠).]

كما يقول [**إنه يكفي للبرهنة على تعليمنا أن التقليد قد تسلمناه عن الآباء كميراث تسلمناه من الرسل بواسطة القديسين الذين جاءوا بعدهم.**]

حوت كتاباته مناقشات حول الطب الطبيعي والدواء التي تكشف عن معرفته الغزيرة لعلوم عصره.

التأله والأفلاطونية الحديثة

يميز Hans Von Campenhausen بين " التأله" عند القديس غريغوريوس أسقف نيصص ووحدة الوجود في الأفلاطونية الحديثة Neoplatonic Pantheism، موضحًا أن التأله يعني به التشبه بالله، الأمر الذي يتطلب اقتناؤه النعمة الإلهية، ويتحقق في عالم حرية الإرادة والتقديس. التأله هنا يعني اغتسال مرآة القلب الداخلي من كل وحل وصدأ الأمور الأرضية فتظهر صورة الله داخل النفس.

هدف الإيمان الحيّ هو التمتع بالطوباوية خلال الاستنارة والعون الإلهي(١١).

1- Quasten: Patrology, vol. 3, p. 283.
2- Cf. Campenhausen, p. 117.
3- In Cant. cant. ser. 6. PG 44:885B.
4- De Vita Moysis 2:11.
5- Ibid 2:37-38.
6- De anima et resuss. PG 46:49B.
7- Contra Eunom 1:114, 126.
8- Ibid 107.
9- De anima et resurr. PG 46:46B.
10- De vita Ephraem Syr. PG 46:82B.
11- Quod non Sint tres dii PG 45:117.



الإيمان الثالوثى

لعل أهم المواضيع اللاهوتية التى عالجها القديس هى "الثالوث القدوس"، خاصة فى مقاله: "لا يوجد ثلاثة آلهه". لقد أكد القديس وحدانية الطبيعة الإلهية والجوهر الإلهى مع تثليث الأقانيم. فالوحدانية ليست على حساب التثليث، والثالوث ليس على حساب وحدانية اللّه.

لقد قدم النقاط التالية:

١- بالنسبة للبشر توجد طبيعة بشرية واحدة مشتركة بين جميع البشر، لكن لكل شخص طبيعته الفردية الخاصة به. لذلك لا نقول أن بطرس وبولس وبرنابا إنسان واحد بل ثلاثة، يشتركون فى الطبيعة الإنسانية، لكن لكل منهم شخصه المستقل المعزول (جوهره الخاص).

٢- بالنسبة للثالوث الآب هو اللّه، والابن هو اللّه، والروح القدس هو اللّه، لكنهم ليسوا ثلاثة آلهة، لأنهم طبيعة واحدة وجوهر واحد... لا توجد ثلاثة جواهر.

٣- يعمل الثالوث القدوس معًا دون انفصال.

شهادة السمائيين للثالوث

يرى القديس غريغوريوس أن كلمة "السيد" فى رؤيا إشعياء (٦:١) جاءت بالجمع Adonai وليس بالمفرد Adon، مع تكرار كلمة "قدوس" ثلاث مرات، تعلن عن مجد الثالوث القدوس. كما يقول:

[أعلن بواسطة (السيرافيم) سرّ الثالوث بوضوح، عندما نطقوا بتلك الصيحة العجيبة: "قدوس" بكونها تحمل جمالاً مع مهابة لكل أقنوم من الثالوث(١).]

إدراك اللّه

يرى القديس غريغوريوس إن رجال اللّه العظماء لم يتحدثوا عن اللّه ذاته الذى هو فوق كل إدراك بل عن مجده أو عجائبه.

[لم يتحدث العظماء عن اللّه، بل بالحرى عن أعماله، قائلين:

"من يعلن عن قوات الرب؟!" مز ١٠٦:٢؛

"سأخبر بجميع عجائبك" مز ٩:٢؛

"جيل فجيل يُسبح بأعمالك" مز ١٤٥:٤.

هذا هو محور مناقشاتهم، وهذا هو ما يدور حوله كلامهم؛ إذ يحاولون ترجمة الحقيقة إلى كلمات. ولكن حينما يصل حوارهم إلى ذاك الذى يعلو كل معرفة، بالحرى يلتزمون بالصمت... إنهم يخبروننا بأن عظمة مجد قداسته لا نهاية لها(٢).]

اسم اللّه

يرى القديس غريغوريوس أن اللّه فوق كل اسم، وأن اسماءه أُعطيت لنا فقط لكى نتعرف عليه بعقولنا المحدودة.

[كيف يُمكن لذاك الذى يفوق كل شىء على الدوام أن نعرفه خلال اسم؟...

كثيرًا ما يدعوه العظيم داود بالعديد من الأسماء، مُقرًا أن جميعها (أقل من أن تعبر عن الحق)، دون الحق.

"أنت هو اللّه، الرحوم، العطوف، الطويل الأناة، الغنى فى الرحمة، الحقيقى، القوى، الثابت، ملجأ وقوة وعون ومعين وقرن خلاص الخ..."

مرة أخرى يعترف داود أن اسم اللّه لا يُعرف فى كل الأرض ومع ذلك فهو عجيب: "مثل عجب صار اسمك على الأرض كلها(٣)".]

1- Adu. Eunomius 2:14.
2- Ibid 1:23.
3- Comm. on Eccles., sermon 7.

السيد المسيح

غاية التجسد الإلهى

غاية تجسد الكلمة كما يقول القديس هو اتحاد اللاهوت بناسوت قابل للموت، لكى نتحد نحن به فنتألّه، أى نحمل نعمة شركة سماته(١).

إنه يقدم لنا جسده بتحول الخبز والخمر، لكى باتحادنا مع غير المائت نشترك فى عدم الفساد(٢).

هل من ضرورة لموته؟

ارتبطت حياة السيد المسيح بالميلاد كما بالموت، كما بحدّى حياتنا البشرية: البداية والنهاية لكى تعمل حياته فى حياتنا بكل حدودها(٣). جاء رأيه مطابقًا لقول القديس إيرينيؤس: [كان لا بد للقوة التى تُصلح طبيعتنا أن تبلغ كلا الطرفين. كان يلزمها أن تلمس البداية وتمتد إلى النهاية، ليغطى كل ما بينهما(٤).]

ميلاد المسيح وموته

فى نصٍ أُقتبس فى وقت مبكر لاحظ القديس غريغوريوس أسقف نيصص أن ميلاد السيد المسيح ليس علة موته، بل بالحرى قَبِل الميلاد لأجل الموت القادم(٥).

هذا هو فكر الكنيسة الأولى، إذ تتطلع إلى موته على الصليب الكفارى أنه غاية ميلاده. ولهذا السبب يبدو أن الكنيسة لم تمارس احتفالاً ليتورجيا لميلاد السيد المسيح حتى القرن الرابع، حيث بدأ الاحتفال به بسبب الجدل اللاهوتى الأريوسى لتأكيد أن المولود هو كلمة اللّه المساوى للآب فى الجوهر. أما عيد الفصح المسيحى أو القيامة فكان يُحتفل به منذ القرن الثانى وربما قبل ذلك(٦).

الصليب

في مقالاته خاصة ضد انوميوس أوضح القديس غريغوريوس أهمية رشم علامة الصليب كممارسة كنسية روحية مع الصلاة والغيرة على طاعة الوصية(٧).

[الصليب هو طريق رباط المسكونة(٨).]

[لخشبة الصليب فاعلية الخلاص لكل بشر، مع أنها - كما أعرف - قطعة من الشجر الرخيص، أقل قيمة من أغلب بقية الأشجار. هكذا أيضًا كانت العليقة التي أعلنت لموسى عن حضرة الله(٩)...]

[أما بخصوص الصليب فهو يحوي معانٍ أخرى عميقة يشرحها أولئك الذين لهم خبرة في الحياة التأملية mysticism، لكن ما نعرفه عن التعليم التقليدي فهو هكذا:

كما أن كل الأمور الواردة في الإنجيل سواء كانت أعمالاً أو أقوالاً تحمل معانٍ سماوية عالية... نتعلم نفس الشيء عن علامة الصليب.

إنها تنقسم إلى أربع جهات تنبثق من المركز، عليه يتمدد ذاك الذي جمع كل شيء فيه في ساعة موته التي سبق فأعدها، مقدمًا بنفسه قرارًا فيه انسجام بين الطبائع المتباينة الموجودة فعلاً...

هذه الموجودات منها ما هو فوق وما هو تحت وما هو على جانبيه...

تتطلع كله الخليقة إليه وتلتف حوله، ومن خلاله تلتصق بنفسها، تلتحم العلويات بالسفليات(١٠).]

1-The Great Catechism 37.
2- Ibid.
3- Boniface Ramsey, P. 79.
4- Cat. mag. 27.
5- See Boniface, P 87ff.
6- Ibid.
7- Against Eunomius, 11:5.

٨- الكنيسة بيت الله، ١٩٧٩، ص ٣٣٣.

9- On the Baptism of Christ.
10- The Great Catechism, 32.

الروح القدس

[إذ يترك الإنسان (محبة) العالم المظلم يصبح نقيًا طاهرًا بعمل الروح وبالتصاقه بالنقاء الحقيقى... تشع النفس ضوءًا، وتصير هى نفسها نورًا كوعد الرب (مت ١٣: ٤٣)(١)].

1- De virginitate II.



الكنيسة

لاهوتى كنسى

يُعتبر القديس غريغوريـوس أسقف نيصص لاهوتيًا كنسيًا، فقد قام فكره اللاهوتى على أساس إنجيلى كنسى آبائى... وكما رأينا فى حديثنا عن نظرته للفلسفة أنه وإن كان قد استخدمها أحيانًا لكنه لم يكن يعتمد عليها، بل جعل الكتاب المقدس، كتاب الكنيسة، هو الحكم النهائى. ومع استخدامه التفكير العقلى فى شرح اللاهوتيات أكثر من غيره من الآباء الكبادوك لكنه التزم بحفظ تقليد الكنيسة الحىّ الثابت غير المتزعزع(١).

تحتل العبادة الكنسية مواضع كثيرة فى كتاباته وعظاته، كما أكد أهمية الأسرار الكنسية وعملها الخلاصى، خاصة العماد والأفخارستيا. لقد عرّف الكاهن بطريقة واضحة مؤكدًا القوة السرائرية فى سيامته وتكريسه للخدمة وعمله الليتورجى(٢).

إن كان لاهوته يقوم على وجود علاقة حية مع اللّه وتمتع بصورته فينا لننعم برؤية جماله الأعظم، فإن هذه الشركة التى تُمارس كحياة شخصية لن تقوم بدون العبادة الكنسية الجماعية الروحية والملتهبة بالروح.

الكنيسة عروس المسيح

[جاء فى المزمور: "كالعريس الخارج من خدره" مز ١٩:٥.

لقد خطبنا عروسًا له خلال إعادة ميلادنا سريًا، نحن الذين كنا كفتاة زنت مع الأوثان (خر ٢٣:٣٧)، قد غيّر طبيعتنا إلى عذراوية غير قابلة للفساد.

مراسيم الزواج لم تُكمل بعد؛ لقد زُفّت الكنيسة إلى الكلمة، كما قال يوحنا: "من له العروس فهو العريس" يو ٣:٢٩. دخلت حجال العُرس السِّرى. وها الملائكة تترقب عودة ملكهم الذى يقود الكنيسة تلك الطوباوية اللائقة **بطبيعتها**(٣).]

١- راجع الفصل : الإيمان والفلسفة.

2- Gf. Hans Von Campenhausen: The Fathers of the Greek Church, p. 120.

3- Comm. On Cant., sermon II.



العماد

العماد المسيحى والعهد القديم

العماد عمل إلهى مقدس يمس خلاص البشرية فى صميمه والحياة الأبدية. هو عنصر حيّ فى خطة الله الخلاصية، لهذا حرص الكتاب المقدس حريصًا كل الحرص أن يقدم لنا إعدادًا طويلاً وتدريجيًا عبر الأجيال خاصًا بالعماد، جنبًا إلى جنب مع الإعداد للتجسد الإلهى وذبيحة الصليب. وكما أن التجسد الإلهى لم يتحقق فجأة بلا مقدمات بل خلال رموز العهد القديم ونبواته، هكذا أيضًا بالنسبة للعماد(١):

١- عبور البحر الأحمر

[عبور البحر الأحمر كقول القديس بولس هو نبوة عن سرّ العماد (١ كو ١٠: ١، ٢)...

فى الحقيقة إذ يقترب الشعب الآن إلى مياه التجديد يكونون كمن يهربون من مصر التى تشير إلى الخطية (فى ذلك الوقت)، فيتحررون ويخلصون، أما إبليس وأعوانه مع أرواح الشر فيهلكون(٢).]

[تلقى الشهوات بنفسها فى المياه لكى تقتفى أثر العبرانيين، لكن المياه التى تمثل عنصر حياة بالنسبة للذين يلتجئون إليها تصير عنصر موت للذين يقتفون أثرهم(٣).]

٢- عبور يشوع نهر الأردن

[لم يتسلم الشعب العبرانى أرض الموعد قبل عبوره الأردن تحت قيادة يشوع، وقد أقام إثنى عشر حجرًا فى النهر كرمز واضح للإثنى عشر خادمًا للمعمودية(٤).]

[لقد تمجد الأردن لأنه يجدد أناسًا، ويزرعهم فى فردوس اللّه(٥).]

٣- قبول ذبيحة إيليا بنزول النار على المياه

[بهذا تنبأ بوضوح مقدمًا عن سرّ العماد العتيد أن يتحقق. **نزلت النار على المياه التى سُكبت ثلاث مرات ليظهر أنه حيث يوجد الماء السرائرى يكون الروح الذى يهب حياة ويحرق ويُلهب، يبيد الشرير (الإنسان القديم) وينير المؤمن(٦)...]**

٤- شفاء نعمان السريانى فى الأردن

[فى الحقيقة الأردن وحده بين كل الأنهار تقبّل باكورة التقديس والبركة، وأفاض كينبوع نعمة المعمودية على العالم كله(٧).]

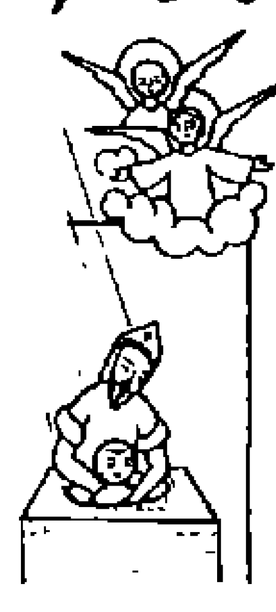
٥- المزمور ٢٢ (٢٣)

يرى القديس غريغوريوس أن مزمور "الرب راعىّ" يشير إلى بركات الأسرار الكنسية خاصة العماد:

أ- قول المرتل "فى مراعٍ خضر يربضنى" يشير إلى كلمة اللّه التى يتقوّت بها الموعوظون قبل عمادهم.

ب- يعلق على قول المرتل: "إذا سرتُ فى وادى ظل الموت"، قائلاً: **[يلزمك أن تُدفن بالموت معه فى المعمودية، لكنه ليس فى الموت ذاته بل تدخل فى ظل الموت وصورته(٨).]**

جـ- يعلق على قوله: "عصاك وعكازك هما يعزياننى، قائلاً: **[عندئذ يقود الإنسان بعصا الروح، فإنه بحق الباركليت (الذى يقود) هو الروح (٩).]**



بركات العماد

١- دفن مع المسيح وقيامة معه

[إن كنا نتمثل بموته فالخطية التى فينا تصير بالتأكيد جثمانًا ميتًا، تُجرح بُرمح المعمودية كما ضرب فينحاس الغيور الرجل الزانى بالرمح (عد ٢٥: ٦، ٧)(١٠).]

[إننا نُدفن فى الماء كما دفن المسيح فى القبر، وعندما نغطس ثلاث مرات نُعبّر بذلك عن قبولنا نعمة القيامة التى ظهرت بعد ثلاثة أيام(١١).]

٢-ميلاد جديد

[لقد قاد طريق هذا الميلاد، فنزل الروح القدس على المياه بعماده، حتى يصير فى كل شيء بكرًا للذين يولدون روحيًا، معطيًا اسم "إخوة" للذين يشتركون معه فى الميلاد، ويتشبهون به بعمادهم بالماء والروح(١٢).]

٣- خلع الإنسان العتيق ولبس الجديد

[إذ تخلع النفس ثوب الجلد الذى لبسته بعد السقوط تنفتح على اللوغوس بنزعها البرقع عن قلبها، أى جسدها، أقصد بالجسد الإنسان القديم الذى يليق بمن يرغبون الاغتسال فى جرن اللوغوس أن يخلعوه عنهم(١٣).]

٤- العماد ختم وعلامة انتساب لله

[النفس التى لم تستتر ولم تتحلَّ بنعمة الميلاد الجديد، لا أعرف إن كانت الملائكة تتقبلها بعد تركها الجسد.

حقًا إنهم لا يستطيعون أن يتقبلوها مادامت لا تحمل الختم Asphragiston، ولا أية علامة خاصة بمالكها. حقًا إنها تصير محمولة فى الهواء، وتتجول بغير راحة دون أن يتطلع إليها أحد، إذ هى بلا مالك. إنها تطلب الراحة فلا تجدها؛ تصرخ وتندم بلا فائدة(١٤).]

٥- العماد دخول في الفردوس

[في حديثه مع الموعظين طالبي العماد:

إنكم خارج الفردوس أيها الموعوظين،

إنكم تشاركون آدم أباكم الأول في نفيه،

والآن يُفتح الباب وتعودون من حيث خرجتم(١٥).]

[لقد طردتنا من الفردوس، وها أنت تدعونا للعودة إليه!

لقد عريتنا من أوراق التين التي هي الثياب، وها أنت تكسونا بثوب الكرمة...

لذلك عندما تنادي آدم لا يعود يخجل، ولا يختفي بين أشجار الفردوس بسبب تأنيبات ضميره، إذ شفيت ثقته البنوية وجاء إلى كمال نور النهار(١٦).]

[اليوم اعتمد (يسوع) من يوحنا لكي يُطهر الذي تدنس، ولكي يجعل الروح ينحدر من فوق فيرفع الإنسان إلى السماء، ويقيم الساقط الذي انحدر وصار في العار.

لقد أصلح المسيح كل الشرور، فأخذ الطبيعة البشرية الكاملة لكي يخلّص البشرية، ولكي يصير مثالاً لكل واحدٍ منا. لذلك فهو يقدس باكورة وثمار كل عملٍ يقوم به لكي يترك لعبيده غيرة حسنة في اقتفاء أثره(١٧).]

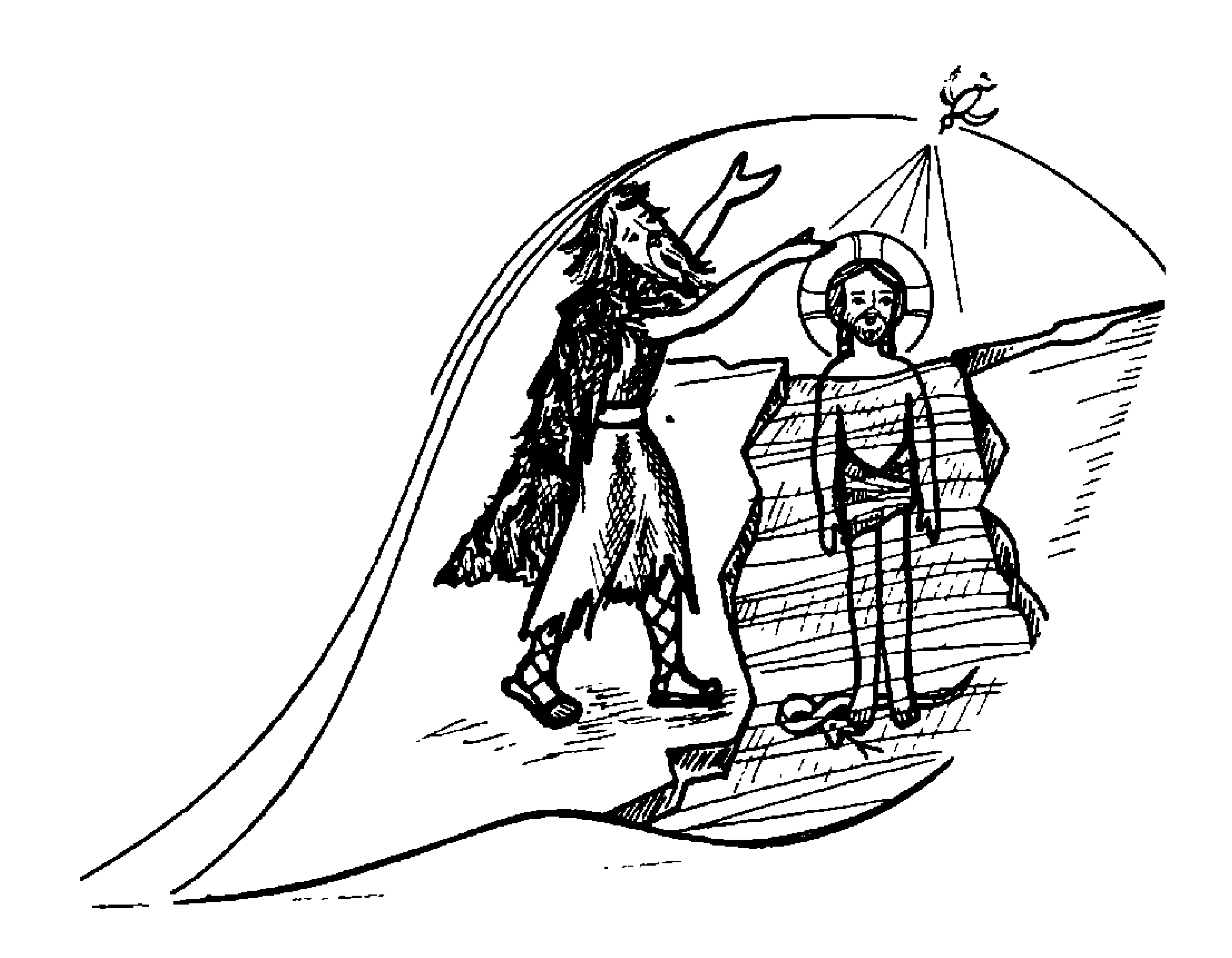
العماد بدء طريق الجهاد

[من يتقبل حميم التجديد يشبه جنديًا صغيرًا أعطى له مكان بين المصارعين، لكنه لم يبرهن بعد على استحقاقه للجندية(١٨).]

١- المؤلف: الروح القدس بين الميلاد الجديد والتجديد المستمر، ١٩٨١، ص ٢٦.

2. PG 46:589D.
3. PG 44. 361C.
4- In Baptis. Christi. PG 46:592A.
5- Ibid. PG 46: 593D.
6- Comm. Jos. 6:47.
7- PG 46:593D.
8- PG 46:692B.
9- PG 46:692B.
10- On Baptism of Christ, 148.

11- Ibid.
12- Adu. Eunomius 2:8.
13- PG 44:1003D.
14- PG 46:424C.
15- PG 46:416C.
16- PG 46:600.
17- De Bapt. Christ.
18- PG 46:429c.



الإنسان

يتطلع القديس غريغوريوس أسقف نيصص إلى الإنسان ككائن فريد، موضع حب الله الفائق، الذى خلقه دون غيره على صورته ومثاله. أقامه ملكًا... لذا لم يجبله إلا بعد خلقة العالم كله بكونه قصرًا ملوكيًا للملك المحبوب، الإنسان!

خلقه ليشهد له بمشاركته صلاحه، فيحمل شركة السّمات الإلهية، خاصة الحب والقداسة...

وعندما سقط بإرادته، واختار الشر الذى ليس من صنع اللّه بل غياب للفضيلة لم يتركه، بل جاء الكلمة الإلهى متجسدًا ليرد إليه صورته الأولى، ويدخل به إلى البنوة للّه، ويعيد إليه حالته الفردوسية... إنه غاية عمل اللّه الخلاصى.

لقد أجاب القديس فى أغلب كتاباته، خاصة مقاله "**خلقة الإنسان** De Opificio Hominis" السابق الحديث عنه (راجع كتاباته التفسيرية) على تساؤلات كثيرة منها:

* لماذا ظهر الإنسان أخيرًا بعد كل الخليقة؟
* ما هو تقدير اللّه لطبيعة الإنسان إن قورنت بكل الخليقة المنظورة؟
* لماذا خلق اللّه الإنسان على صورته ومثاله؟
* وماذا تعنى صورة اللّه ومثاله؟
* ما هو حال الإنسان الأول؟
* إن كان اللّه قد خلق الإنسان صالحًا، فمن أين جاء الشر؟
* هل فقد الإنسان صلاحه قسرًا؟
* كيف يمكن أن يسترد الإنسان شركته فى صلاح اللّه؟
* ماهى نظرتك لأخيك حتى إن كان خادمًا أو عبدًا؟
* ما هى طبيعة العقل غير المنظور؟
* ما هى علاقة الجسد المنظور بالعقل غير المنظور؟

ستجد إجابات مختصرة عن هذه الأسئلة وغيرها في المقتطفات التي نوردها هنا عن كتابات القديس، راجيًا الرجوع إلى مقاله: "خلقة الإنسان".

الإنسان مركز اللاهوتيات

يركز اللاهوت الإسكندري على "الإنسان" بكونه موضوع حب اللّه واهتمامه وعمله الخلاصي. فغاية الثالوث القدوس هي "تأليه الإنسان"، أي **عودته إلى طبيعته الأصلية المطوّبة، إلى صورة اللّه ومثاله؛ فيتمتع بالخلود وعدم الفساد مع شركة المجد الأبدي.**

الآباء الإسكندريون وعلى رأسهم البابا أثناسيوس الرسولي حتى في جدلهم اللاهوتي يحملون منهجًا خلاصيًا (سوتيريولوجيا)(١)... فيدافع القديس أثناسيوس عن لاهوت السيد المسيح، ليؤكد أنه قادر على تقديم الخلاص، دفع الدين الإلهي غير المحدود، والدخول بنا إلى البنوة للآب كعطية خلال اتحادنا بالابن الأزلي.

إنه يؤكد بحرارة أن اللّه وحده يقدر أن يخلص الجنس الساقط(٢)؛ فإنه ما كنا نخلص لو لم يصر اللّه إنسانًا. فالإنسان في حاجة إلى الخالق ليخلص طبيعته الساقطة ويردها إلى أصلها، واهبًا إياها صورة اللّه، ومصلحًا إياها من الفساد إلى عدم الفساد، فيه تغلب البشرية الموت وتُعاد خلقتها(٣). وكانت عبارته المشهورة هي أن كلمة اللّه [صار إنسانًا لنصير نحن آلهة(٤).] وفي دفاعه عن لاهوت الروح القدس يؤكد إمكانيته في تقديم شركة الطبيعة الإلهية، وتجديد خلقتنا... إن لم يكن الخالق كيف يقدر أن يهبنا شركة الطبيعة الإلهية؟ إذ يقول: [إن كان بشركة الروح صرنا "شركاء في الطبيعة الإلهية" ٢ بط ١: ٤... فإن طبيعته هي اللّه(٥).]

وقد حمل القديس غريغوريوس ذات الفكر الإسكندري كما ظهر في كثير من كتاباته. فرأينا في مقالاته "عن الصلاة الربانية" يتحدث عن الصلاة كوسيلة **لإعادة صورة اللّه في الإنسان التي أفسدتها الخطية، وأفقدتها جمالها الأصلي،** وفي مقالاته عن "التطويبات" يركز على **التعرف على اللّه ورؤيته داخل النفس، حيث تمتلكه النفس وهو يمتلكها، فتتحول إلى حالة فردوسية متهللة.**

وفي مقاله: "The Great Catechism" يقول:

[أعلن اللّه عن نفسه أنه اتحد بناسوت قابل للموت، حتى يمكن للبشرية أن تتأله (تحمل شركة سماته) وذلك بتدبير نعمته.

إنه ينشر نفسه فى كل مؤمن خلال هذا الجسد الذى يتحقق (بتحوّل) الخبز والخمر، رابطًا نفسه بأجساد المؤمنين، كى يضمن بهذا شركة الإنسان فى عدم الفساد باتحاده مع الخالق(٦).]

الإنسان خليقة اللّه المحبوبة لديه

يستعرض القديس غريغوريوس خلقة الإنسان بكونه الخليقة المحبوبة لديه جدًا، لم يخلقه عن ضرورة ملزمة للّه بل خلال محبته الفائقة، إذ يقول:

[إن كان وجود العالم كله يعتمد على قوة الكلمة (الإلهى)، فلا مفر من أن ندرك أن الكلمة ذاته هو العلة الوحيدة لكل ما فى العالم من أمور متنوعة، خلاله نشأت خطة الوجود الكاملة.

إننا لا نختلف مع من يريد أن يدعوه "الكلمة" أو "الحكمة" أو "القوة" أو "اللّه"، أو أى اسم آخر مكرم وممجد. لأنه أيا كانت التعبيرات أو الأسماء المستخدمة فإنها تكشف عن أمرٍ واحدٍ. ألا وهو **قوة اللّه السرمدي**، الصانع كل الموجودات، العارف بما لم يكن موجودًا، والحافظ لكل ما هو كائن، والناظر إلى ما سيكون.

ثبت لنا خلال المباحثات المنطقية أن كلمة اللّه (أو الحكمة أو القوة) هو خالق الطبيعة البشرية، **لم يكن مُلزمًا تحت ضرورة ما لخلقة الإنسان، لكنه جاء بالإنسان إلى الوجود من أجل فرط محبته له**(٧).]

الإنسان فى الفردوس

يقول **القديس اكليمنضس الإسكندرى**: "كان الإنسان فى الفردوس حرًا كطفل ... كابن للّه(٨)".

ويصور لنا البابا **أثناسيوس** الإنسان الأول فى الفردوس: "له فكره المركز على الله فى حرية دون أن يعوقه عيب"، وقد كان فى صحبة الملائكة: "يتأمل الأمور التى يدركها العقل، والتى يتمتع بها فى الموضع الذى كان فيه(٩)".

وكان لهذا الفكر صداه على **القديس كيرلس الكبير** الذى يرى أن عقل آدم "كان دائمًا يتجه إلى رؤية الحقيقة الإلهية."

يصور لنا **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** حال الإنسان فى الفردوس كملك صاحب سلطان، فيوضح لنا السبب فى ترك خلقة الإنسان إلى اليوم السادس بعد الانتهاء فى خلقة المسكونة، إذ يقول:

[لم يدخل الإنسان البشرى إلى عالم الموجودات بعد (أى حتى اليوم السادس)... فإنه لا يليق بالحاكم أن يظهر قبل ظهور الأمور التى يسيطر عليها.

لكن ما أن صارت سلطنته مستعدة، حيث أعد الخالق كل الأشياء كمسكن ملوكى للملك القادم، حتى أُعلن عن الحاكم!

هذا المسكن الملوكى هو الأرض والجزائر والبحر والسماء التى هى كقوس يحوط فوق الكل أشبه بسقف لها.

فى هذا القصر اختزن غنى من كل نوع: كل عالم النباتات والحيوانات، كل ما له جسد ونَفَسٌ وحياة. وإن أراد أحد أن يحصى الأمور المادية كغنى يجد أيضًا كل ما هو جميل وذات قيمة فى نظر الإنسان، من ذهب وفضة وحجارة كريمة، يتمتع بها.

لقد خبأ الخالق هذه الأشياء بفيض فى حضن الأرض، كما لو كانت كنزًا ملوكيًا، حتى متى ظهر الإنسان البشرى فى العالم يتأمل بعضها ويسيطر على البعض الآخر. فإنه إذ يتمتع بهذه الأمور يشكر واهب الخيرات، وإذ ينظر جمال الأمور التى يراها وضخامتها ينجذب إلى قوة خالقها العظيمة غير المدركة(١١).]

الحالة الفردوسية هى حالة حرية وملوكية، فيها أقام ملك الملوك الإنسان ملكًا، ينعم بسلطان على الخليقة، كما يتمتع بغنى الخليقة وجمالها، فيمجد الخالق محب البشر.

من جانب آخر الحالة الفردوسية هي حالة تناغم وانسجام بين الإنسان والسمائيين بكونهم خليقة اللّه المملوءة حبًا.

[وُجد وقت كانت فيه الخليقة العاقلة جوقة (خورسًا) واحدة، تتجه نحو قائد الخورس، وتتحرك متجهة نحو ذاك الانسجام الغالب النابع عن القائد وعن وصيته.]

يقول أيضًا القديس غريغوريوس إن هذا الانسجام كان على مستوى المسكونة، بين السماء والأرض، حيث تمتع الأبوان الأولان بصحبة الملائكة؛ لكنهما فسدا بالخطية، فُطردا من مجتمعهما هذا، وصار نسلهما كما في عالم غريب يترقبون اللحظة التي فيها يعودون إلى التمتع بالاتحاد مع الجوقة الإلهية(١٢).

النفس صورة اللّه

يرى **القديس اكليمنضس الإسكندري والعلامة أوريجانوس** انه يجب التمييز بين كون النفس على صورة اللّه أو على مثاله. ففي رأيهما أن "صورة اللّه" هو ما نتقبله عند الميلاد، أما التشبه باللّه فنقتنيه بالجهاد كل أيام حياتنا.

يقول **العلامة أوريجانوس**: [أُعطى للإنسان البشرى كرامة الصورة في خلقته الأولى، أما كمال المثال فيُحفظ لتحقيق الكمال(١٣).]

أما **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** فيرى الصورة والمثال جانبين لحقيقة واحدة بعينها. بالنسبة له: للصورة مفهوم جامد أما للشبه فمفهوم ديناميكي دائم الحركة(١٤).

[المثال هو بلوغ أو تحقيق تقدم للصورة؛ إنه جهاد لأجل التمتع بالشبه، هو تشكيل للنفس حسب مقتضيات الصورة، التي أودعها اللّه فينا مثل خطة بدائية (أي سكتش)(١٥).]

الشركة في صلاح اللّه

[لا يمكن أن يُخفى نوره، ولا أن يبقى مجده بلا شاهد، ولا صلاح لا يُتمتع به، أو أن يبقى كل ما يتعلق بالطبيعة الإلهية غير مستخدم لصالح الإنسان كي

يتمتع به ويشترك فيه. فـإن كـان الإنسـان قد جـاء إلـى الوجـود لهذا الغرض، أى ليشارك اللّه فى صلاحه، فحتمًا فـى خلقته وُهب القدرة على التمتـع بكـل مـا هـو صالح. فتتمتع العين برؤية النور الحقيقى بمقتضى الشـعاع المزروع فيهـا طبيعيًـا، يجذب إليها ما هو مماثل له بقدرته الفطرية.

بالمثل كان من الضرورى وجود تماثل للطبيعة البشرية بالإلهية حتى يمكـن خلال هذا التماثل أن تتلاحم مع ما هو متجانس معها.

كان لابد للكائنات غير العاقلة سواء التى تعيش فى الماء أو فى الهواء أن يكون لها نظام يتكيف مع البيئة المحيطة بكل كائن أن يجد عشيرته وما يتجانس معه، الواحد فى الهواء والآخر فى الماء. هكذا لابد للإنسان الذى جاء إلـى الوجـود لكـى يتمتـع بصلاح اللّه أن يكون له شيء ما فى طبيعتـه شـبيه بمـا سيشـارك فيـه. لهـذا تـأهل الإنسان بالحياة والعقل والحكمة وكل صفات تليق باللّه لكى خلال هذه كلها تنشأ فيه الرغبة إلى ما هو متجانس معه(١٦).]

الخلود هو صورة اللّه فينا

[حيث أن إحدى الأمور الصالحة التى تخص الطبيعة الإلهية هـى "الأبديـة"، كان لابد ألا تفتقر طبيعتنا إلى هذه الخاصية، بل تتسم بعنصر الخلود، حتى يستطيع خلال قدرته الطبيعية أن يدرك ما لا يُدرك، وأن يتوق إلى الأبدية الإلهية.

حقًا لقد أوضحت قصة الخليقة ذلك بتعبير واضـح مفهـوم، باستخدام عبـارة واحدة، إذ قيل إن الإنسان خُلق "على صورة اللّه ومثاله"...

هناك الفردوس بثماره الفريدة التى لم تُشبع شهية من ذاقوهـا، بـل تقدم لهـم معرفة وحياة أبدية. هذا يتفق تمامًا مـع مـا سبق أن لاحظنـاه بخصـوص الإنسـان، وهو أن طبيعتنا البشرية كانت صالحة منذ البدء ومحاطة بالصلاح(١٧).]

الحرية هى صورة اللّه فى النفس

[كان الإنسان البشرى (آدم) صورة ومثالاً للقوة التى تحكم كل الموجودات.

لهذا السبب كان أيضًا له السيادة على نفسه، بكونه متشبهًا بذاك الذى يمارس السلطة الجامعية.

لم يكن قط عبدًا لأية ضرورة خارجية.

لا، بل كان يفكر فيما هو حق، وبكامل حرية إرادته يختار ما يسره. وباختياره حلت الكارثة فى تلك اللحظة التى هيمنت على الجنس البشرى(١٨).]

[هذا الإله (الصالح) ما كان يحرم الإنسان من أنبل وأثمن الأمور الصالحة، أعنى هبة الحرية والقدرة على اتخاذ القرارات بنفسه.

فلو أن الضرورة هى التى تحكم حياة الإنسان لكانت "الصورة" (التى له كصورة اللّه) زائفة، لأنها تكون بذلك بعيدة كل البعد عن الأصل، ولا وجه للشبه بينهما.

كيف يمكن للطبيعة المستعبدة لأى نوع من الضرورة أن تُسمَّى صورة الطبيعة الملوكية؟...

اللّه ليس مسئولاً عن الشرور الحاضرة، فقد أسس طبيعتك لتكون حرة غير مُستعبدة، إنما تقع المسئولية على الإرادة المنحرفة التى بها يختار الإنسان ما هو ردىء عوضًا عما هو أفضل(١٩).]

أين هى الطبيعة الصالحة؟

[من يشاهد الحالة الراهنة (للإنسان) يظن أنه يستطيع تأكيد خطأ مناقشتنا، معترضًا بأننا لا نرى الإنسان حاليًا على هذا الحال (فى شركة صلاح اللّه)، بل على حال مضاد تمامًا.

أين هو عنصر التشبه باللّه فى النفس؟

أين هو تحرر الجسد من الشهوات، أى الحياة الأبدية؟

هوذا حياة الإنسان سريعة العبور، فهو يخضع للشهوات، ومصيره الموت، ويتعّرض لكل أنواع المعاناة فى الجسد والنفس...

لكن كون حياة الإنسان فى الوقت الحاضر تُحسب فى حالة غير طبيعية، هذا ليس برهانًا أنه فى يوم من الأيام لم يُخلق محاطًا بالصلاح. لأنه مادام الإنسان

هو عمل اللّه، الذى جاء به إلى الوجود بصلاحه، فلا يُعقل أن نتصور اللّه يخلقه محاطًا بالشر، الصلاح هو علة وجوده... خلق اللّه الإنسان ليشاركه فى صلاحه الفريد ويعضده بقدرة طبيعية على كل نوع من الكمال، حتى إذ يكون متمثلاً باللّه ينجذب إلى مثيله(٣٠)؛]

من أين جاء الشر؟

حاولت بعض الفلسفات الشرقية أن تتسلل إلى أفكار المسيحيين مثل الاعتقاد بوجود إله الشر، أو أن اللّه خالق للشر. لكن آباء الكنيسة كانوا حذرين فى تأكيد أن اللّه كلى الصلاح ليس مصدرًا للشر.

[ربما تتساءل: كيف استبدل ذاك الذى تشرّف بأخذ كل هذه الهبات السامية أى الصلاح بما هو ردىء؟

السبب واضح: لم يوجد قط للشر أصل فى الإرادة الإلهية.

لو كان اللّه هو خالق الشر وأباه (مصدره) لما كان هناك لوم على ارتكاب الشر.

بلى، فإن الشر ينشأ بطريقة ما فى الداخل، ويظهر فى الإرادة عندما تنسحب النفس من الصلاح.

الإبصار قدرة طبيعية، أما العمى فما هو إلا حرمان من القدرة الطبيعية؛ هكذا يوجد تضاد بين الفضيلة والشر. فلا يمكن فهم الشر إلا بكونه غيابًا للفضيلة. فباستبعاد النور يحل الظلام؛ ولا وجود للظلام بوجود النور. هكذا طالما يلتصق الصلاح بالطبيعة فلا يحق وجود الشر(٣١).]

الشر والشقاء

عالج القديس غريغوريوس أسقف نيصص مشكلة الشر التى حطمت حياة الإنسان وأفقدته كل سعادة... حتى صار يشتهى أحيانًا الموت عن الحياة، وإذا ما شعر بالموت كنهاية للحياة البشرية صار فى بؤس شديد.

ماذا فعل الله مع الإنسان الأول؟ لقد ألبسه قميصًا من جلد! ألبس جسده طبيعة الموت (جلد حيوان ميت) كرداء يخلعه ليحمل في نفسه وجسده خلودًا بعد إصلاح طبيعته، هذا ما قدمه كلمة الله، المخلص!

[يبلغ الإنسان إلى شدة الأسى إذا ما فكر ملياً في انحلال جسده، حاسبًا فناء حياتنا هذه بالموت أمرًا قاسيًا، وتأكد أن انقراض وجودنا البشرى بالموت هو الشر الأعظم.

ليتأمل إذن خلال هذه النظرة السوداوية إلى الخير الإلهى الفائق، فإن الذين يشتركون في الحياة (مع اللّه) ينعمون بالجانب الحسن، يحبون الحياة ويجدونها تستحق أن تُعاش. أما نظرتنا إلى الإنسان الذى يقضى حياته في ألم فيكون حُكمه مختلفًا، إذ يحسب اللاوجود أفضل كثيرًا من الحياة المملوءة ألمًا.

الآن دعونا نختبر إن كان الذى أعدنا للحياة قد دبر لنا هذه الحياة لتكون سعيدة أم لا.

إننا بإرادتنا الحرة دخلنا في عهد صداقة مع الشر، وإذ مزجنا طبيعتنا بالشر بانخراطنا في الملذات، كما تُحلى المادة الضارة بالعسل، هكذا نبتعد نحن عن طريق السعادة المرتبط في أذهاننا بالخلاص من الألم وأسبابه. لهذا يعود الإنسان إلى التراب مثل آنية فخارية، حتى ينحل من الشر الذى اكتسبه، ويتشكّل مرة أخرى إلى صورته الأصلية بالقيامة.

لقد قدم لنا الناموس مثل هذه التعاليم في إطار غامض في شكل قصة تاريخية... يروى لنا موسى كيف تورّط أبوانا الأولون، باكورة الجنس البشرى، في العصيان، فتجردا من سعادتهما الأولى. حينئذ كساهم اللّه لباسًا من جلد الحيوانات. في رأيي أن موسى لم يقصد المعنى الحرفي لجلد الحيوانات! أى نوع من الحيوانات هذا الذى يُذبح ويُسلم جلده ليصنع لهما لباسًا؟

حيث أن جلد الحيوانات يُنزع من الحيوان وهو ميت لذلك يعنى اللّه الذى يشفينا من الشر بحكمته أنه قد وهب الإنسان الموت الجسدى بعد السقوط، وهى سمة تخص الخليقة غير العاقلة، لكن هذا الحال لا يدوم معه إلى الأبد. فالرداء شيء خارجي نلبسه لكى نستخدمه إلى حين، فهو ليس أمرًا طبيعيًا (دائمًا). هكذا قد وُضعت سمة الفناء التى للعجموات على الطبيعة التى خُلقت للخلود... إنها تغطى

ما هو خارجي وليس ما هو داخلي. تلتصق بالعنصر الخارجي بالحواس (الجسد) وليس بصورة اللّه الفعلية. فالعنصر الخاص بالحواس يتحلل لكنه لا يختفي، لأن الاختفاء يعني اللاوجود، أما التحلل فهو عودة إلى التراب الذي جاء منه.

(يتحلل العنصر الخاص بالحواس لطبيعتنا حتى يُعاد تشكيله إلى صورته الأولى ويُنزع عنه ما هو غريب عنه.)

إذ تشترك النفس في الجسد في الأهواء الخاطئة، لذا يوجد تشابه بين موت الجسد وموت النفس.

بالنسبة للجسد، الموت هو مفارقة الحياة الخاصة بالحواس. أما بالنسبة للنفس فنُطلق كلمة الموت على الانفصال عن الحياة الحقة... النفس لا تتحل لأنها غير مركبة (بل بسيطة)، إذ كيف يمكن أن تتحلل؟ لكن يجب نزع بصمات الخطية عنها، ومعالجتها بالفضيلة في حياتنا الحالية كي تُشفى من شوائب الخطية...

هكذا إذا ما وضعنا في الحسبان غرض اللّه الكلي الحكمة النهائي فلا يجوز لنا بعدم حكمتنا وسوء تقديرنا للأمور أن ندعو خالق الإنسان انه "خالق الشر"... فهو يعلم ما كان سيحدث (سقوط الإنسان) ولم يمنع الباعث لما حدث فعلاً... لأنه ما هو البديل؟ هل هو عدم خلقة الإنسان لعلمه السابق بأنه يضل عن الحق؟ أم أن يعود به إلى صورته الأولى، أي إلى حالة النعمة الأصلية خلال التوبة حتى وإن كان قد فسد؟

إنه لمن الغباء أن ندعو اللّه "خالق الشر" لمجرد تألمنا جسديًا، لأن هذا جاء ثمرة حتمية لتقلب الطبيعة البشرية. وإن رفضنا اعتبار اللّه خالق الإنسان غير مسئولٍ عما تسبب لنا من ألم فإن هذا الفكر أيضًا لهو قمة الغباء، يتسم به من يحكمون على الأمور بالخير أو الشر على أساس أحاسيسهم وحدها. هؤلاء لا يدركون أن الصلاح الداخلي لا يتعلق بالأحاسيس البشرية، وأن الشر في الواقع غريب عن الصلاح الحق...

من كان يشغله رجوع الإنسان إلى حالة النعمة الأصلية؟

من كان يسعى ليقيم الساقط، ويدعو الضال، ويمسك بيد التائه ويقوده إلى الصواب؟

من هو هذا إلا ربنا العظيم؟

الله الذى وهبنا الحياة فى البداية هو وحده صاحب القدرة والحق فى استعادة ما قد فُقد.

ميلاده حسب الجسد ونموه من الطفولة إلى النضوج وأكله وشربه وتعبه ونومه وحزنه ودموعه واتهامه كذبًا ومحاكمته وصلبه وموته وقبره، كل هذه الأمور المذكورة فى الإعلان الإلهى تضعف إيمان الأغبياء حتى أنهم يرفضون النتيجة النهائية (القيامة) بسبب البداية المؤلمة، فيحسبون أن القيامة لا تتفق مع الألوهية بسبب عدم ملائمة ظروف موته فى نظرهم.

أظن أنه من الضرورى أن نستبعد عن فكرنا قليلاً النظر إلى الجسد كأمر دنيء وأن نفكر فيما هو صالح فى ذاته وما هو مضاد له، متسائلين ما الذى يميز كل منهما.

أظن أن من يفكر فى الأمر مليًا سوف لا يجادل فيما إذا كان أمر واحد (الجسد) مشينًا، بل المشين هو السلوك الشرير. أما ما هو خالٍ من السلوك الشرير فهو غريب تمامًا عن كل ما هو مشين. وما هو ليس متصل بما هو مشين يُعتبر صالحًا، وما هو صالح لا خلطة له بما يناقضه...

(هكذا يدافع القديس عن تجسد المخلص، فإن ناسوته أو حياته بيننا كإنسان لا يشينه، لأن هذه الأمور ليست خطية أو مشينة كما يظن البعض)(٢٢).]

الجهاد الروحى

يقول القديس غريغوريوس إنه [لا يقوم التطويب على التعرف على الله بل على اقتنائه كقول الرب (مت٥:٨)(٢٣)]

لكى تقتنى الله فى الداخل يليق بالنفس أن تتشبه بالمسيح الذى مات من أجل العالم، فانها [إن لم تمت تبقى ميتة تمامًا، فقط بالإماتة ونزع كل ما هو مائت عنها تقتنى الحياة(٢٤).] النفس فى رحلة حب دائم لكنها "رحلة مطوّبة مع اللّه لا تتوقف(٢٥).]

جهاد النفس دائم ومستمر، رحلة ممتعة لا تتوقف، تجاهد لا بذاتها بل باللّه العامل بنعمة فيها، إذ يقول: [يجب أن تقودنا اليد الإلهية إلى غير المرئى.]

قدسية الجسد

في حديثه عن الشر والشقاء أوضح القديس غريغوريوس أن المخلص لم يستنكف عن أن يتأنس ويسلك حياتنا البشرية، لأن الجسد في ذاته ليس شرًا، إنما هي الإرادة المنحرفة نحو الشر.

حين سقط الإنسان ألبسه الله قميصًا من جلد حيوان ليكشف الإنسان موته، فيسعى إلى مخلصه الذي تجسد لأجله كي يهب نفسه وجسده حياة أبدية.

[ليس الجسد مصدرًا للشر إنما حرية الاختيار (الإرادة الحرة)(٢٦).]

[الجسد هو مسكن النفس(٢٧).]

[الجسد هو أداة الروح... العامل في صحبة النفس(٢٨).]

[صار الكلمة جسدًا لكي يغير جسدنا إلى روح... ولكي يقدس الجسد كله معه، إذ فيه تقدست البكور(٢٩).]

وحدة الإنسان

يتطلع القديس غريغوريوس إلى النفس، النفس وحدها، مخلوقة على صورة الله للتمتع بالشركة الأبدية مع الله(٣٠)، لكن لا يتحدث عن الإنسان في ثنائية، فإن الجسد في نظره معين للنفس... يشارك النفس جهادها، ويشاركها أيضًا مجدها.

ففي حديثه عن الكمال يقول: [كمال الحياة المسيحية، أقصد تلك الحياة التي يُستخدم فيها اسم المسيح لإظهارها - هي تلك التي فيها نشترك ليس فقط بأذهاننا ونفوسنا بل بكل تصرفات حياتنا لكي تكون قداستنا كاملة، متفقة مع ما نطق به بولس: في كل الجسد والنفس والروح (١ تس ٥:٢٣)، محفوظة دائمًا من كل امتزاج بالشر(٣١).]

لا تستعبد الإنسان!

يرى القديس أن الله خلق الإنسان في كرامة طبيعية، لهذا لا يليق بالإنسان أن يذل أخاه الإنسان، إذ خلق الجميع في كرامة.

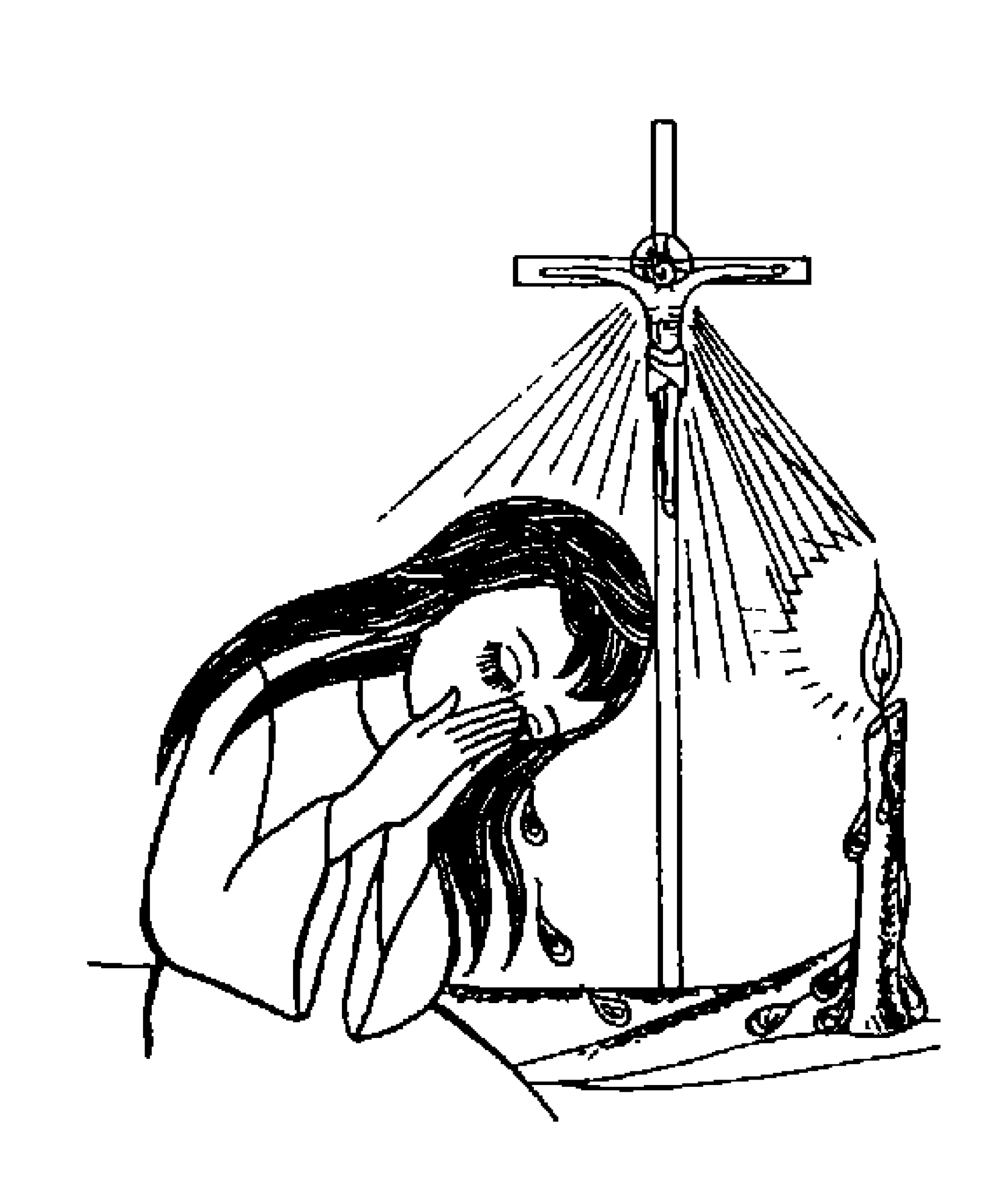
[نظم رب المسكونة أن تكون الطبيعة غير العاقلة هى وحدها التى تلتزم بخدمة الإنسان(٣٢)].

[لقد زيَّن الإنسان بعطية حرية الإرادة. لهذا من يخضع لك خلال العادات أو القوانين هو مساوٍ لك فى كرامة الطبيعة. فإنه لم يُخلق بواسطتك، ولا يحيا بك، ولا تقَبل منك سمات الجسد والروح(٣٣)].

[كيف يمكن لإنسان أن يكون سيدًا على حياة الآخر إن كان هو ليس سيدًا على حياته؟

لهذا يلزمه أن يكون مسكينًا بالروح، متطلعًا إلى ذاك الذى لأجلنا صار فقيرًا بإرادته.

ليعتبر الكل متساوين بالطبيعة، ولا ينتفخ بوقاحة، سليطًا على بنى جنسه لإظهار عمله بخداع، بل يكون بالحق مطوبًا، فيقتنى ملكوت السموات مقابل اتضاعه فى هذه الحياة العابرة(٣٤)].



الإنسان والدعوة الإلهية

رأينا أن عصب الفكر اللاهوتى عند القديس غريغوريوس هو دعوة الإنسان للتمتع برؤية اللّه وشركة المجد الإلهى، وذلك بإعادة طبيعته إلى أصلها فتحمل صورة اللّه وتتمتع بالتمثُل به... فتنجذب إليه بكونه الأصل، وتعيش شاهدة له بحياتها الجديدة الحاملة للقوة الإلهية، وتنعم بالسمويات.

يمكننا فى إيجاز أن نوضح غاية الإيمان المسيحى فى النقاط التالية:

١- الشهادة للّه بالحياة الجديدة فى المسيح يسوع:

[ليس هناك طريق آخر يمكن به أن يمجد الإنسان اللّه غير فضيلته التى تحمل شهادة عن القوة الإلهية كعِلّة صلاحه(٣٥).]

٢- دعوة لرؤية اللّه

[لا ليقودنا إلى جبل (سيناء) بل إلى السماء عينها التى جعلها سهلة المنال للبشر بالفضيلة.

ثانيًا لا ليهبنا رؤية القوة الإلهية بل المشاركة فيها، حيث يحضرهم كمن هم فى قرابة مع الطبيعة الإلهية.

أضف إلى ذلك أنه لا يخفى المجد الفائق فى ظلمة ليجعله صعبًا للذين يريدون أن يتأملوه، بل أولاً ينير الظلمة بنور تعليمه الإلهى، وعندئذ يمنح نقاوة القلب لرؤية المجد فى إشراق بهائه الذى لا يُوصف.(٣٦).]

يدعو الإنسان المسيحى للصعود على سلم رؤية اللّه الروحى، إذ يقدم عدة درجات للرؤية:

الدرجة الأولى: أن نرى اللّه خلال أعماله الإلهية وطاقاته، إذ يقول : [إنه غير منظور بالطبيعة، لكنه يصير منظورًا بطاقاته His energies(٣٧).]

أما الدرجة الثانية فهى أن نرى اللّه فى داخلنا، نرى أنفسنا كما ينبغى فنتمتع بملكوت اللّه فينا، وتتجذب صورة اللّه إليه بكونه الأصل.

[إن كان الإنسان نقى القلب يرى نفسه، فيرى فى نفسه ما يشتهيه، وهكذا يصير مطوّبًا، لأنه عندما يتطلع إلى نقاوته يرى أصل صورته(٣٨).]

[ما هى هذه الرؤية؟

إنها النقاوة والقداسة والبساطة وما إلى ذلك من انعكاسات مثيرة للطبيعة الإلهية، التى فيها يُرى (يُتأمل فى) اللّه(٣٩).]

["ملكوت اللّه داخلكم" لو ١٧:٢١.

بهذا نتعلم أن قلب الإنسان إذا تنقى من كل خليقة، ومن كل ميول جامحة، يرى صورة الطبيعة الإلهية فى جماله (أى فى جمال الإنسان الداخلى)...

بالحقيقة فى قدرتك أن تحمل فى داخلك المستوى الذى به تدرك الجمال الإلهى. لأن الذى خلقك وهب طبيعتك هذه السمة العجيبة، إذ طبع اللّه عليها مثال أمجاد طبيعته. وكأنه قد شكل الصورة منحوتة بالشمع، لكن الشر الذى صببته حول الطبيعة التى تحمل الصورة الإلهية أفقدتك هذه الميزة العجيبة المخفية تحت أغطية فاسدة.

إن غسلت بالحياة الصالحة الدنس الذى التصق على قلبك كلزقة، يشرق الجمال الإلهى فيك من جديد(٤٠).]

٣- دعوة للحياة الملائكية

[لأتأمل فى الأمور العلوية،

ولأستهن بما هو أرضى،

مظهرًا طريق الحياة الملائكى(٤١)!]

[لا يصلى الملاك إلى اللّه من أجل خبز الكفاف، لأنه لا تحتاج طبيعته إلى مثل هذه الأمور...

الإنسان الذى يقدم للطبيعة مجرد كفافها، ولا يترك أفكاره الباطلة تجول إلى ما وراء احتياجه ليس بأقل من الحالة الملائكية بكثير، فإنه يتمثل بعدم احتياجهم إلى شيء، ما دام مقتنعًا فى داخله بالقليل(٤٢).]

٤- دعوة للكمال غير المحدود

المسيحى مدعو للسلوك فى طريق الكمال الأبدى، لا يعرف لكماله حدًا، ولا لطريقه نهاية... فإنه يبقى سائرًا بفرح ليلتقى بمسيحه "الطريق" الأبدى!

[أما بخصوص الفضيلة فإن التصميم على الكمال ليس له حدود. فالرسول الإلهى، الإنسان العظيم والثابت فى الروح، يسير فى طريق الفضيلة ليمتد دائمًا إلى ما هو قدام (فى ٣:١٣).

إنه يشعر بأن التوقف فى الطريق غير آمن. لأن كل صلاح بطبيعته غير محدود، ولا يعوقه إلا وجود ما هو مضاد له. فالحياة يوقفها الموت، والنور يحده الظلام.

هكذا كل ماهو بالكلية صالح لا يتوقف إلا فى النقطة التى يبدأ فيها ما هو ضده...

لقد أظهرنا أن كل ما يمكن أن يُحد فهو ليس بفضيلة(٤٣).]

١- المؤلف: الكنيسة القبطية الأرثوذكسية كنيسة علم ولاهوت، ١٩٨٦، ص٨٥.

2- J.N.D. Kelly: Early Christian Doctrines, 1960, P.284.

3- De Incbrn. 8,9.

4- Ibid 54.

5- Ep. ad Serapion 1:24.

6- The Great Catechism 35. N.P.Frs 5:502.

7- Orat. Cat. 5 ترجمة الدكتورة نورا العجمى

8- Protrepticus 11.

9- Contra gentes 2.

10- In Rom. 5:18-19.

11- De hom. Opif. 2.

12- In Psalm. inscrip. 2:6.

13- De principiis 3:6:1.

14- Boniface Ramsay: Beginning to Read the Fathers, N.Y. 1985, P.67.

15- Ibid., W.J. Burghardt: The Image of God in man According to Cyril of Alexandria: Stuaies in Christian Antiquity 14, Washington 1957, P. 4.

16- Orat. Cat. 5 ترجمة الدكتورة نورا العجمى

17- Ibid.

18- De virginitate 12.

19- Oratione Cat. 5.

20- Ibid.
21- Ibid.
22- Oratione Cat. 8*9.
23- Or. de Beat. 6. PG 44:1269C
24- Hom. in Cant. 12 PG 44:1020B.
25- Ibid 44:1025.
26- DE Mortuis. PG 46:529A.
27- De hominis opificio. PG 44:237B.
28- Ibid 161 AB, In Christi resurr. 3.
29- Adv. Eunomius 4. PG 45:637A,B.
30- Hans, P. 123.
31- On Perfection PG 46:285A-D.
32- The Lord's Prayer, sermon 5.
33- Ibid.
34- Or. de Beuti. 5:1
35- The Lord's Prayer, sermon 3.
36- Ibid 2.
37- Or. de Beut., 6.
38- Ibid.
39- Ibid.
40- Ibid .
41- The Lord's prayer, 3.
42- Ibid.
43- Life of Moses. PG 44:300B-301C.



الأخرويات

"الاسخاتولوجى"

تحدثنا عن تلمذته للعلامة أوريجانوس، فقد حمل له كل اعتزاز من أجل فكره الرمزى وتفسيره الروحى للكتاب المقدس.

ولعل من الأخطاء الأوريجانية التى التصقت به إنكاره أبدية جهنم، فاعتقد بأن صلاح الله وحبه اللانهائى يسمحان بالإصلاح العام حتى بالنسبة للشيطان، فلا يبقى كائن ما فى جهنم أبديًا. هذا الفكر يناقض الكتاب المقدس ويختلف مع الكنيسة الجامعة والفكر الآبائى.

كرر حديثه عن النار التى لا تنطفىء والدود الذى لا يموت والجزاء الأبدى(١)، ومع هذه التهديدات الأبدية لا يقدر ان يتخيل تغرب أبدى للخلائق العقلية عن الله، موضحًا أن هذه العبارات انما تعنى عن طول الزمن(٢)، وانها مجرد تأديبات وعلاج لمدة طويلة.

من جهة أخرى رفض الفكر الأوريجانى الخاص بالوجود السابق للنفس، ومهاجرة النفوس إلى أجساد أخرى كعقاب لخطايا ارتكبتها فى عالم سابق(٣).

1- Orat. Cat. 40.
2- Ibid 26.
3- De an. et resusr. PG 46:125.



البتولية والزواج

امتدح القديس غريغوريوس أسقف نيصص البتولية، وقد تأسف انـه لـم ينـل مجدها(١) .

لقد أوضح أن ملذات الحياة الزوجيـة غير أكيدة ولا دائمـة. كمـا أظهـر أن البعض ينكرون صلاح الزواج، وقد فند أقوالهم، وأخيرًا كرّس جهده فى الدفاع عن شريعة الحياة الزوجية.

بركات البتولية

١- كثيرًا ما امتدح الحياة البتولية التى تمس الجسد والنفس بكل طاقاتهما.

يقول الأب ميثوديوس من أولمبيا أن كلمـة "بتوليـة Parthenia" تقترب جدًا من كلمة "التقرب للّه Partheia"، الاختلاف فى حرف واحد. فالبتوليـة "تجعل مـن يمتلكها والذى يتمتع بأسرارها الطاهرة إلهيًا(٢)".

يرى القديس غريغوريوس أسقف نيصص انها طريق للتأله (التشبه باللّـه)، فيدعوها "**غير الفاسدة**"، حاسبًا إياها شركة فى "**عدم الفساد**" الإلهى.

[انهـا تمتـع بالشـركة مـع الطبيعـة السـماوية! مـادامت هـى متحـررة مـن الشهوات فهى دائمًا حاضرة بالنسبة للقوات العلوية(٣).]

يراها مرآة لنقاوة اللّه وجماله(٤)، من يقتنيهـا يتمتـع برؤيـة الجمـال الإلهـى والتأمل فيه.

٢- كثيرًا ما تحدث فى مقاله De virginitate عن البتوليـة انهـا تجعـل مـن النفس عروسًا للسيد المسيح. وقد كرر هذه الفكره فى كتاباته التفسيرية.

1- De Virginitate, ch. 3.
2- Symposium 8:1.
3- De Virg. 1-2.
4- Ibid 11.

الأيقونات(١)

يصف القديس غريغوريوس مناظر استشهاد ثيـؤدور التـى تبـدو أنهـا كـانت مرسومة على حائط الكنيسة الحاوية لرفاتــه، فيقـول: [لقـد صـّور الفنـان فـى ألـوان زاهية أعمال الشهيد المملوءة بطولة: جهاده، وآلامـه، وصرامتـه كجنـدى المسـيح.] حتى قال: [وإن كانت الصورة صامته لكنها كمن يتحدث من على الحائط ليقدم نفعًا عظيمًا.]

ويخبرنا القديس أن نفسه اهتزت فى داخله عند رؤيته للأيقونات التـى تمثـل ذبح اسحق، قائلاً: [كثيرًا ما شاهدت صورًا تمثـل ذبـح اسـحق، لا أقـدر أن أتأملهـا دون أن أزرف الدموع، لأن المصور الفنان قدمها بطريقة صادقة.]

١- للمؤلف: الكنيسة بيت الله، ١٩٧٩، ص ٢٥٢.



الصلاة

جو الصلاة

كثيرًا ما تحدث الآباء عن الجو المساعد للصلاة، فالصلاة عمل روحى لكنه مرتبط بالجسد والظروف المحيطة به. فسجود الجسد كما يقول **العلامة أوريجانوس** يهيىء النفس للصلاة، وهكذا بسط اليدين ورفع العينين إلى فوق.

أيضًا السياحة إلى الأماكن المقدسة مثل فلسطين... تثير فى قلوبنا أعمال السيد المسيح من أجلنا خاصةً صلبه ودفنه وقيامته. وقد تحدث **القديس جيروم** الذى ترك روما إلى بيت لحم عن ذلك فى رسالته إلى مارسيلا، إحدى بناته الروحيات فى روما، حاثًا إياها أن تلحق به...

خشى **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** من الانشغال بالسياحة إلى الأماكن المقدسة كعادة أو كعمل حرفى، فقال بان الرب فى اليوم الأخير لن يسأل إن كان أحد قد سافر إلى أورشليم أم لا، وقد أوضح أنه هو نفسه زار الأماكن المقدسة لكنه لاحظ أن البعض أساء استخدام الزيارة إلى هذه الأماكن لهذا بلغ النتيجة التالية:

[الاقتراب إلى الله ليس موضوع تغيير مكانٍ ما أين نصلى، بلى، فإنه لا يهم ما هو الموضع الذى أنت فيه، مادامت نفسك تمثل نوعًا من موضع راحة يمكن أن يسكن الله فيه ويفتقدك. أما إن امتلأت نفسك الداخلية بأفكار دنيئة، فإنك تكون بعيدًا عن أن ترحب بالمسيح فى داخلك كمن لم يبدأ يعترف به، حتى إن أمكنك الوقوف عند الجلجثة أو على جبل الزيتون أو فى الموضع الأثرى للقيامة(١).]

التسبيح بالمزامير

يرى القديس غريغوريوس أن التسبيح بالمزامير [يجعلنا مساوين للملائكة في الكرامة(٢).]

الجوع إلى الرب

[كما يقول المرتل (مز ٣٤:٨) إن ذاق إنسان الرب بالحق، أي إن حمل الله في داخله، يمتلىء بذاك الذي يعطش إليه ويجوع، كما وعد قائلاً: "أبي وأنا إليه نأتي، وعنده نصنع منزلاً" يو ١٤:٢٣.

إني أظن أن العظيم بولس أيضًا الذي تذوق ثمار الفردوس التي لا يُنطق بها كان يمتلىء مما يتذوقه وفي نفس الوقت كان دائم الجوع إليه(٣).]

[الذين يذوقون وينظرون خلال الخبرة أن الرب حلو (مز ٣٤:٨) يصير هذا التذوق دعوة إلى مزيد من التمتع. ومن ثم فالذي يقوم أمام الرب على الدوام يختبر هذا الدافع المستمر نحو مزيد من التقدم(٤).]

لننعم بجناحيْ الله!

[كثيرًا ما سمعت في الكتاب المقدس نسبة الأجنحة لله (مز ١٧:٨؛ ٩١:٤؛ تث ٣٢:١١، مت ٢٣:٣٧).

جناحا الله قوة الله وبركاته وعدم فساده وما إلى ذلك، كل هذه الخصائص الإلهية وُجدت في الإنسان حينما كان يشبه الله في كل شيء. لكن انحرافنا إلى الشر سلبنا أجنحتنا، ومن ثمة أُعلنت نعمة الله لنا وأنارتنا.

برفضنا الفساد والشهوات العالمية ينمو فينا جناحا القداسة والبر من جديد(٥).]

لنسكر بغنى بيت الرب!

[الذين يشربون من غنى بيت الرب ومجرى مسرته يرتوون، كما يخبرنا النبي (مز ٣٦:٨،٩).

بهذه الوسيلة سكر داود ولم يدرِ بنفسه، وإذ كان فى دهش عاين ذاك الجمال الإلهى الذى لا يقدر مائت على معاينته(٦).]

سرعة حركة الجهاد الروحى

[كان بولس مقاتلاً سريع الحركة ورشيقًا، وكان داود يوسع خطواته (مز ٣٦:١٨) أثناء تعقبه عدوه؛ وأيضًا العريس فى سفر النشيد يشبه الظبى يقفز بسرعة على الجبال، طافرًا على التلال (نش ٢:٨،٩)(٧).]

الصلاة

حولت الصلاة الحوت إلى بيت ليونان، وردّت حزقيال إلى الحياة من أبواب الموت عينها، وحوّلت اللهب إلى ريح بارد للثلاثة فتية.

صلاة ضد العدو

["فليخز ويخجل الذين يطلبون نفسى" مز ٣٥:٤ ...... انه لم ينطق باللعنات ضد الذين سببوا له خسارة أو سلبوا أرضًا، أو خططوا لتصفيته جسديًا، إنما صرخ ضد الذين يخططون شرًا ضد نفسه.

ما هو تخطيط الشر ضد النفس إلا التغرُب عن اللّه؟

لايمكن للنفس البشرية أن تتغرب عن اللّه إلا إذا كان ذهنها مستعبدًا للشهوات...

هذا هو معنى صلواته: أن ينصره اللّه على أعدائه؟ هؤلاء الأعداء هم الشهوات(٨).]

1- De Orat. 31:2
2- Ep.2.
٣- للمؤلف: المزامير ١٩٩١ ص٨.
4- The Beatitude, sermon 4.
5- Comm. on Cant., sermon 8.
6- Comm. on Cant., sermon 15.
7- Comm. on Cant., sermon 10.
8- The Beatitude, sermon 2.

القديسة مريم

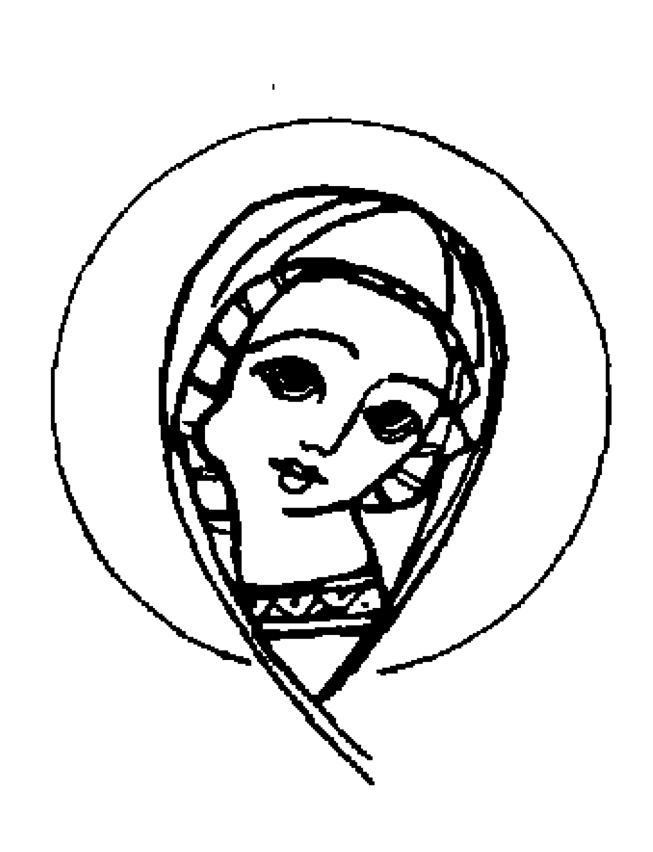
١- فى جداله ضد أبوليناريوس الذى أنكر أن للسيد المسيح نفسًا بشرية، حاسبًا أن اللاهوت حل محلها، دافع القديس غريغوريوس عن كمال ناسوت المسيح فى أحشاء القديسة مريم لهذا يلزم دعوتها "**والدة الإله**" Theotokos، وقد استخدم هذا اللقب خمس مرات، رافضًا لقب "والدة الإنسان anthropotokos" قال بأن ابن اللّه قد شكّل لنفسه طبيعة كاملة من جسد البتول(١)، له نفس بشرية وعقل بشرى وله حرية الإرادة(٢).

٢- تحدث عن القديسة مريم كشفيعة حواء: [وجدت المرأة شفيعتها فى إمرأة(٣).]

٣- تحدث عن دوام بتوليتها قائلاً:

[لم تُحلّ بتولية العذراء الطاهرة خلال الميلاد غير الدنس، كما لم تقف البتولية فى طريق ميلاد عظيم كهذا(٤).]

1- On the Lord's Prayer, sermon 1.
2- Adv. Apoll. PG 45:1136.
3- Antirrheticus 45.
4- On Cant. Cant. sermon 13. PG 44:1052.



المحتويات

الثمن ١١٥ قرشاً